روايات الهلال

ظلال غرناطة

منال القاضي

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
محمد الشافعي

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.
تلكس: Telex 92703 hilal u n
فاكس: FAX: 3625469

البريد الإليكتروني: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة -
لبنان ٨٠٠٠ ليرة -
السعودية ١٢ ريالا-
البحرين ١,٢ دينار-
قطر ١٢ ريالا -
الإمارات ١٢ درهما -
اليمن ٥٠٠ ريال -
فلسطين ٢ دولار.

تصميم: محمود الشيخ

الاشتراكات
قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

رقم الإيداع ٢٠١٤/٩٥٢٢
الترقيم الدولى 978 - 977 - 07 - 1645 - 8

رواية الهلال

ظلال غرناطة

منال القاضى

دار الهلال
٢٠١٤

(١)

كانت مبتهجة ،كأنها لم تعش سنوات كثيرة وتنهكها التجارب والدموع والرغبات. لا شئ يشبه تلك اللحظة .أحست وهى تمسك بيديه الصغيرتين أن جذرا جديدا صار يربطها بالعالم . وانتها قوة وأرادت أن تظهر شجاعتها أمامه ، فهمست له بالعربية ،تاركة المخاوف جانبا .كانت عنيدة ولا تعترف بأنها صارت لغة محرمة ،فليقولوا ماشاءوا ولتفعل ما تريد ، استمتعت بنطق كل حرف ،لمعت عيناها وأشرق وجهها مع كل كلمة جديدة ، ودفعت روحها بالجمل من الأعماق لعلها تصل إلى الأعماق ،أخرجت من صندوقها الخاص ما أخفت سنوات لتلف به الرضيع، بعد أن ظنت أنها ما عادت تخرجه أبدا .لم تكن تصدق أنها صارت جدة لهذا الملاك الصغير، أيقظ فيها الأمل ،فحدثته كما تحدث نفسها

" لوتعرف بماذا ألفك ؟ وما حكايته ؟ منذ زمن بعيد كان يوجد بساط كبير فى أرض كسرى اسمه بهار كسرى ،اغتنمه العرب أيام النصر والقوة، مرت عليه أياد الرجال المتعبة بالأيادى الخشنة التي لا تعرف المتع ، ولا تعرف كيف تتذوقها سألوا ما هذا ؟لم يجب أحد، كان جنة من الخيوط، فصوص لامعة شقت أنهارا ،أوراق شجر من اللؤلؤ وثمار من الياقوت . عالم لم ير البدوالقادمين من الجزيرة العربية مثله كانوا شجعان ومنتصرين، وعجزوا عن تقييم البساط وتقسيمه .قسمه عمر بن الخطاب بنفسه .تلك القطعة كانت من نصيب جد لنا عربى عشق خيوطها الناعمة ومناظرها المبهرة ،ووهب ما بقى من عمره ليتعلم كيف يصنع هذا الجمال. تنقل من بلد الى بلد وراء شغفه ،تتلمذ على يد كل صانع ماهر ،حتى صارت أسرار الصنعة لديه ،وصار نسج الأبسطة مهنته ومهنة أولاده وأحفاده .

وذات يوم قرر أحد حفدته الهجرة الى هنا ، حيث كانت الأندلس الجميلة ،أخذ بهار كسرى فى غفلة من الجميع ودسه بين أمتعته وقال:

"هولى ،من غيرى يستحق التمتع به "

وهبت الرضيع نبوءة ،ثم تحولت الى جبال غرناطة ، بعينين صغيرتين كقطرتى عنبر، هزت رأسها المكلل بخصلات ثلجية وتمتمت

" عليهم أن يحذروا النساء "

الكلمات ترتجف وتتراقص وماء الذهب يغفو.

●●●

كانت شقيقتها التوأم تراقبها من خلف ستار ،امرأة لا تشبهها ، أكثر قلقا وخوفا ، عيناها بلون الليل ، تحب التلصص ،بارعة فى الاختفاء، من يقترب منها تدهشه ولا يعرف السبب

" لقد عادت شقيقتى الى هلاوسها "

صفقت درة وبدأت تغنى

عندئذ تركت سهر مخبئها وهرولت نحوها .

" هس هس .... سيقتلوننا "

ابتسمت درة ،وعادت تصفق أكثر وأكثر

" غن معى "

صمتت سهر، انهما مختلفتان ،لاحقتهما النظرات المتشككة طوال حياتهما ،كأنما أراد أصحابها أن يقولوا، لا يمكن، لستما توأمتين.

يقبلون على درة ويتفادونها ،كأنها غير موجودة أومجرد ظل قاتم لها .

اختلست النظر إلى شقيقتها ،لقد كبرت مثلها ،عبث الزمن بملامحها ، لكنها لم تفقد السحر فى شيخوختها ، لم تذبل قدرتها على التأثير ، تتكلم فتبهج القلب وتنسج الأبسطة الحلوة ،أما هى ؟ فداخلها الفراغ .أحيانا

تزورها أحلام تذهلها وتؤرق خيالاتها ،لكنها لا تعرف كيف ترويها ، ستظل سجينة ولن يدرى بها أحد.

" غن معى "

لا فائدة ،فرغبة أختها فى الحياة شرسة ومستحيلة ،كنهر يريد أن يتدفق فى الصحراء ، لقد جنت ، تتلهف على الغناء كأنها بلبل أوكروان ، وصوتها كالنعيق ،لا تكل عن اطلاق النبوءات، تشق بها وعودا للغد،كأنها تحيا فى مكان آخر وليس غرناطة الغارقة فى الحزن والكآبة.

تتلاقى نظراتهما ، فتفهم سهر ، أرادت شقيقتها أن تقول ما شأنك بى لقد خلقت هكذا ، كى تنبت جنة داخل روحى ،وأكون محبوبة وأغنى ، ما ذنبى ، جعلنى الله موهوبة وشهيرة بسبب أبسطتى التى سحرت حتى الأعداء ،دعك منى وفتشى داخلك عن أغنية.

تخفض رأسها فى اذعان ، وتتذكرقشتاليا وهويطلب بلهفة طفلاً من أختها أن تصنع له بساطا ، يشق صدرها ألم خاطف وتلعب برأسها أفكار سوداء تسألها ،من أنت ،من أنت هنا ؟.

ولكن درة نسجت حروفاً كوفيه غاضبة فى أنحاء بساط القشتالى ،وأخبرتها بالسر ،فسرت لها ما تقوله الحروف التى بدت كزنابق وورود وفراشات حائرة وأطباق فاكهة وأفاعى. هنا أنشودة لغرناطة وهناك آيات قرآنية ،باحت بخوفها منهم وكراهيتها لهم .لا تنكر سهر أنها أحبتها فى ذلك اليوم ،كانت مختلفة، جريئة،صادقة ،قريبة ،ولكن تلك لحظات نادرة .

●●●

الطرق ضيقة وكثيرة إلى القيصرية ،هى بالنسبة للبعض سوق مدهش للحرير، وبالنسبة للشقيقتين مكان للبهجة والغموض ، يلتقون هناك بخليط من البشر القادمين من بلاد بعيدة ،وجوه بكل لون، بيضاء، سوداء ،سمراء،

صفراء. عمالقة ، أقزام ، أناس من كل صوب ،يتكلمون لغات شتى ، ويطلقون صفير الدهشة والضعف أمام رقة ونعومة البضائع المعروضة. كأن ما يرونه هوالحرير الحق ،أما ما عهدوه من قبل ،فهوزائف .

تعرف درة أبواب القصيرية العشر ،وجربت الدخول منها جميعا فى شبابها وكانت تهمس لكل باب وتطلق عليه اسم سري.

مازالت تذكر الأبواب وأسماءها ،ولكنها صارت تدخل الآن من الباب الأقرب ،الذى أسمته ميمون وهمست له وهى تعبره برفقة أختها ومعهما البغال والأبسطة.

تستقبلهما الأصوات والألوان والروائح . تقول درة

" مازال الناس يحيون ويضحكون"

ترد سهرفى أسي

" المحلات تتناقص ، سأحزن اذا أغلق حسان يوما وبعنا الأبسطة لغيره"

سألتها عن اسمه الآخر فقالت

" خوليو ربما .... أه ..لا أذكر

البعض يتعرف على الشقيقتين ، يلوحون لهما ويعرضون ما لديهم من روائع .كانت سهر ترد عليهم

" لم نبع الأبسطة بعد ولكن ابق لى هذه وهذه "

الشمس تغمر الناس والحوانيت والطرقات . ضحكت درة حين رأت طفلين يتجادلان ثم ينسيان الخلاف ويواصلان اللعب ، أحدهما يقفز فوق الأرصفة المزينة بنقوش لانهائية ملونة ،والآخر يحاول اللحاق به ،كلاهما بلون الياسمين ورقته .

قضت عمرها تفتش عن الضحكات ،لتتغلب على مشهد هزها بشدة فى طفولتها وظل يلاحقها، ومازالت حتى الآن لا تصدقه ، هل كان أبوها يبكى

فى ذلك اليوم ، رأت جسده ينتفض ،ووجهه يختفى بين كفين كبيرين وصوت مكتوم يخرج منه ، هل كان هذا بكاء ؟ كيف؟ وهو القوى مثل جبال سييرا وشجر السروونهرى حدرة وشنيل .كانت لا تفهم ما يحدث ولكنها شعرت بشئ له مذاق مر . تمنت أن تهرب إلى السماء مثل طائر بلون المشمش حلق فى حديقتهم وقتذاك ،تشير إليه .

" انظر يا أبى "

يرفع رأسه ،يتابع اصبعها بعينين ذابلتين

" الله " وينحنى للحزن مرة ثانية .

أعدوا العدة للرحيل ، سيسافرون إلى مصر .ولكن القشتالون أوقفوه ، وقعوا فى أسر أبسطته ،خيوطها الناعمة الرقيقة وخبرة قرون فى النسج . طلبوا منه البقاء ليصنع لهم عددا منها. قرر أن يرفض فى البداية ،دار حوار بينه وبين نفسه، "سيقتلونك " أجاب "لا يهم " ، "والبنتين ؟" سكت ،

اذا مات كل المخلصين فكيف تعود غرناطة؟ " سكت. تراجع عن قراره ولكنه لم يعطهم أبسطة خرساء ،غرز فيها نفسه وهويته . بدأ يعلمها، فعرفت كيف ينسج الحروف فى أنحائها ليحكى ما يشاء ، ويخلد رسائل سرية ،كرس صناعته البديعة للمقاومة.حاولت سهر مجارتهما دون جدوى ، فاكتفت بالمشاهدة .

تأجل رحيلهم يوما بعد يوم حتى صار أمنية بعيدة.

كان وقتا عصيبا رأت أباها يمزقه الألم ويبدى تماسكا ، تنهمر الدموع بينه وبين نفسه ، أما أمام جيرانهم ومعارفهم يتمسك بالأمل ويتكلم فى اطمئنان ،سنكون أحرارا ، ألم يوقعوا على مواثيق ؟ قلبه يحدثه بالأسوأ ولا يبوح به ، يقول لهم الأسوأ حدث وضاعت غرناطة، ولكنهم وعدوا أخر ملوك المسلمين بأننا فى مأمن ولنا حريتنا وعقيدتناوأموالنا ، خاطبهم بعكس ما

شعر به ، كان قلبه مليئا بمخاوف تحققت سريعا ، تساقطت الوعود ، فرضت الضرائب على المسلمين فقط ،وتوالت المصائب فحل على المدينة كاردينال وحشى قرر "لن يكون فى غرناطة مسلمون " معلنا أن الكاثوليكية هى العقيدة الحقة والوحيدة وما دونها هراء اما التنصر أوالرحيل.

ثاروا، سال الدم ،قتل كثيرون .تعقبوا من اختار الرحيل حتى الموت .

بقوا، خضعوا، دب الخوف داخلهم .

اقتادوهم ذات يوم إلى إحدى الكنائس وتم تعميدهم ، كانت ليلة شاقة على أبيها لم ينم حتى الصباح وانكب على نوله لينسج " أنا عربى مسلم".

وتوالت الليالى والأيام الصعبة ،انغمس أبوها فى العمل ليواسى نفسه، يتوقع قدومهم كل لحظة لمحاسبته . يتوقع أن يقولوا

" لقد اكتشفنا لعبتك . تريد أن تقتلنا بالكلمات ؟ أهذا ما تريد ؟، لقد اكتشفنا السين والراء ،اكتشفنا الخاء والفاء والياء ،وباقى الحروف لم تعد سراً خفياً "

ولكنهم لم يفعلوا .

أصوات عالية تقطع أفكارها ، تفيق درة وترى بعض القشتاليين ينهرون طفلا لأنه يدندن بأغنية ممنوعة ويهددونه اذا كرر فعلته، تعلق سهر " قتلوا أغنيته كما قتلوا أغنيتى منذ زمن "

تعترض شقيقتها

"الأغنيات لا تموت ، تتوارى ، تختفت ، ولكن لا تموت ."

لن يتعاركا كالعادة ، ليس هنا ، المكان يجبرهما على الهدنة ، تستولى على درة بهجة خفية ،وتحاول سهر أن تتسلى بمشاهدة البضائع، تشعر

أنها جسد بلا روح ،لن تفهمها درة أبدا ، انها تغنى ليل نهار ، تمنت أن تفعل مثلها ولم تتمكن . اذا كانت الأغانى لا تموت فأين هى ؟

●●●

من أين يأتى الأمل ؟ كان هذا صعبا وشاقا لامرأة فى عمر درة . لقد جاءت السنوات الجافة ،الأحلام داخلها قليلة . كانت تخلقها بجهد .كيف تصف حياتها الآن ،أصابعها مازالت تنسج فى براعة ،ولكنها براعة الخبرة لا الموهبة ، تتابع حفيدها الوحيد ، يحبو،يسير أولى خطواته ،ويردد الكلمات التى يصطادها من الهواء ،تمر السنوات ولكن لا توجد البوادر التى انتظرتها .ينشغل أكثر باللعب والحلوى .لن يكون كما أرادت. كانت فى مثل عمره حين صار نسج الأبسطة شغفها الأول، يهمس لها أبوها ويتوسل

"توقفى من أجل الحلوى ، لماذا لا تلعبين ، العالم تغير من حولنا . أريدك أن تكونى طفلة وكفى . أحتاج فى هذا الوقت الصعب أن يكون الى جوارى طفلة

لم تكن تعرف الكثير عن العالم ولا كيف تغير ولكنها تعرف ما يكفيها لتواصل العمل على نولها . روحها مأخوذة بما تفعل ، الخيالات ، الأحلام، رغبتها فى اللعب وأكل الحلوى ، كلمات أبيها الحزينة ،تتحول إلى صور تنسجها .لقد ولدت من أجل هذا . كانت غرناطة تعيش كابوسا ،وأبوها يهمس فى أذنها بأسماء المدن والأنهار المجاورة والبعيدة التى كانت عربية ولم تعد تسمع الكلام العربى .لم يتحدث كثيرا عن غرناطة ، لم يستوعب ما حدث ،فلم يكن يتصور سقوطها .كانت مثل وتد .لجأ اليها عبر السنوات المذعورين من قرطبة وأشبيلية وطليطلة ، بلنسية ،دانية ، البلبار، أركش ،البونت ،ولبة ،شنتمرية ،مورور،مرسية ،قرمونة ، المرية ،رندة ،

سرقسطة، بطليوس ،لبلة ، باجة ،بريتشر ، لجأوا إليها بعد أن فقدوا كل شئ .غرناطة قوية حتى لودبت فيها الشيخوخة ،هكذا ظن .كانت حياته تتدفق كشلال دون رادع ولكنه فوجئ قرب النهاية بصخور قاسية توقفه . تعرف شعوره الآن لقد ضاع وطن ظنه فى مأمن رغم الشواهد..أما هى فقرب النهاية فقدت الأحلام الواحد تلوالآخر .

لن يولد طفل أخر فى العائلة و ماء الذهب مثل أبيه لا يملك مواهب نساج، تذكرت ابنها الصعب ،قضت سنوات تحاول تلقينه الصنعة دون طائل،وفى النهاية تركها و قال لها بشفقة قبل رحيله

"ما فائدة كتابة سرية ستعلق فوق جدران الأعداء يا أمى "

تقول بصوت مثل أجراس صغيرة

"من يدرى قد تعود الجدران لنا "

لا يبدوعليه الاقتناع ،يقول بحزم

" سأقاوم بطريقتى "

تراه يحمل البنادق والسيوف ويمضى ، يرتجف قلبها وتحاول أن توقفه ، يفلت من بين وساوسها،ويشق طريقه بعيدا عن البيت .

أين هوالآن ؟ لا تدرى ، لم يعرف أبدا بوجود ابنه ماء الذهب .

أنجبته الجارية ثم صارت تراقبه فى أسى وتدور الأفكار فى رأسها وتؤلمها

" ليته لم يولد ،فى أى أرض أعطيت حياة ،لوأننى حرة لأخترت طريقى ولكننى لست حرة ". تنتبه إليها درة أحيانا "تعال يا ابنتى "

تجفل وتتلاشى .لم تتصور درة أنها سجينة أفكارها ولم تدر أن الأمور اختلفت ، فمسلمو غرناطة صاروا يخفون هويتهم ، يداومون على قداس الاحاد فى الكنائس خوفا من بطش وانتقام السادة الجدد ، يحبسون

دموعا فى قلوبهم ،يتحركون فى الأرض التى كانت ملكا لهم كأغراب ،كأنما انقلبت الى سجن كبير ، سادة الأمس لم يعودوا كذلك .

لم تكن الجارية تشغل حيزا كبيرا فى تفكيرها لتقترب منها وتفهمها،كانت مهمومة بحفيدها ليل نهار ،وتفكر هل ضاع الأمل تماما؟ ألا يوجد أى احتمال ؟

أسمته ماء الذهب ، ما الفائدة؟ خطر لها الاسم يوم ميلاده ، إنه الأمل الأخير ، الحفيد الذى فاجأها بقدومه فى نهاية العمر .قررت أن تمنحه كل الفرص ، نبوءة حلوة وحكاية بهار كسرى واسم يشبه هذا كله ..

ما الفائدة ؟ كانت الأغانى تخفت داخلها وكانت سهر قاسية

"أين أغنياتك "

تصمت درة ،فضياع الأمل أمر شاق .

●●●

وجدت المرأة البدينة ذات العينين الزرقاويين الكتاب الضائع داخل صندوق ،أثناء قيامها بالتفتيش ،وتعجبت درة لأنها فقدته منذ فترة ،وبحثت عنه طويلا لتبدأ قراءته ولم تفكر فى الصندوق ،أما سهر فلمعت عيناها ببريق خشيت أن تلمحه الغريبة ، فتفهم ما أرادت مداراته . ولهذا آثرت الاختفاء .

التفتت المرأة الى درة وقالت بقشتالية

" احذرك ..... "

وفدت على القرية منذ أسبوع ومعها عدد من الأسر المسيحية ،للإقامة الدائمة والتفتيش عليهم.

قالوا لهم:

" مهمتكم معرفة أفكارهم ومشاعرهم ،كيف يذبحون حيواناتهم وطيورهم، ماذا يرتدون ،ماذا يخفون "

لقنتها قائمة الممنوعات

" لا ولا ولا .....:"

كانت تتحدث ودرة لا تفهم نصف ما تقول ،لكنها خمنته .عرفت من رجال ونساء القرية بقدوم اثنتى عشرة أسرة مسيحية لمراقبة الجميع . صاروا مهمومين

سمعتهم يتهامسون

" هل حقا سيراقبون أنفاسنا ، الأعياد وعقود الزواج قلائدنا، ملابسنا، خطواتنا ،كلماتنا ،موسيقانا ، قبورنا "

" يمكننا تدبير المال ورشوتهم "

" وهل نملك المال "

اشتعل الكتاب وتاكلت صفحاته، دهسته المرأة بقدميها .

أرادت درة أن تظهر أمام حفيدها بمظهر القوية المتحكمة فى الظروف،لا عجوزا صارت الكروب أكبر منها، أخفت حزنها وكذبت بصوت كالجمر

" قرأته وتحول إلى أفكار ،توقفت عند كل سطر فيه ،وضعت علامات على صفحات كاملة كى أحفظها ،عرفت الكثير عن كاتبه "

ينصت ماء الذهب ،تلسعه الكلمات

" وهل قرأت كتبا غيره؟ "

صوتها لا ينطفئ

" طبعا .. طبعا "

يخفت صوته كأنما شعر بخطر ما

" كتب كثيرة كثيرة "

" أكثرمما تتصور "

" وبها حكايات "

تصمت فيقول

" ليتنى أعرف الحكايات التى احترقت "

تظهر المرأة بعد أن فتشت غرف البيت وباحاته،ينظر إليها ويتأملها فى أى شئ تختلف عنهم ، لم هى مرعبة ،ألا تبكى أبدا ،كيف تسقط دموعها ،تبادله المرأة نظرات الشك والدهشة ، وتواصل التفتيش ،وتحذر درة من كل الأشياء التى تخطر على بالها .

يلاحقها بعينيه ، يبدوعليها المفاجأة ، تقاوم كلمة كادت تنطقها، لولا أنها أطبقت فمها وانصرفت سريعا

●●●

لديهما عبدان ،اختفيا كثيرا فى الآونة الأخيرة بسبب المرسوم الجديد الذى يمنع اقتناء العبيد ، كان النهار يعنى لهما ، أن يظلا داخل قبوولكنهما واصلا العمل فى حذر طوال الليل فى البستان ،يرعيان أشجار الليمون البرتقال ، القرنفل ، الياسمين ، الورود ،الزنابق .

البستان يذهل القادمين للتفتيش كل حين ، ينظرون فى ريبة داخل الغرف ،خلف الستائر ،فى الحديقة فلا يجدون ما يريحهم ، وتزداد الشكوك.

فلا يمكن أن تزدهر الحديقة بفضل العجوزتين والطفل وأمه ،لابد من وجود مساعدين أشداء، ولكنهم لم يتمكنوا بعد طول بحث وترقب ومباغتة من إثبات هذه النظرية

لم يكن ماء الذهب بعيدا طوال الوقت عن أمه ، كانت تتفاعل معه أحيانا حين تنسى أفكارها السوداوية ، تضمه وتقبله كأى أم وتتذكر أباه . وتحاول أن تقتنص مناسبة لتسأل عن سيدها الذى طال غيابه ، الكلمات تذوب ويبقى جرح قلبها ،لم يحبها وستحبه للأبد.

وإذا حلّ المساء يغنى العبدان بأهازيج الماضى ، للمجد والعشق ، وإذا شاركهما ماء الذهب الغناء بصوته المرح ، يتبدل إيقاع الأغانى ،ويبث

فيها روحاً جديدة ، يحاول العبدان مجاراته فى سعادة كأنما انفتح أمامهما بفضل طفولته مغارة من النغم ،وأحيانا يغزل على النول وهويغنى أشكالا تتوالى كالظلال والنور ،تعطى درة الأمل مرة أخرى "انه يتعلم . يحدث هذا ببطء ولكنه يتعلم ".

" احك لى حكاية يا جدتى

تزم شفتيها ،فيعرف أنه لا مفر ويبدأ فى تنفيذ أوامرها أولا، يفعل هذا بضجر .

تتابعه درة وتصيح

" ليس هكذا بل هكذا "

يحاول فتقول

" حسن "

يبتهج

" احك لى الآن"

تقول فى حزم

" اكمل ما طلبته منك أولا "

يبكى ويدبدب بقدميه

" احك .... احك "

تضيع الحروف فى بكائه. تباغتهما سهر وتقول بصوت مشروخ

" لماذا لا نذهب من هنا ... لماذا نبقى ... أشعر بالضياع

تذهله الكلمات وتخيفه .

●●●

تغير البيت ذات يوم ودبت فيه الحركة ، سرت الهمسات وتطلع ساكنوه إلى الزائرة التى استقبلتها السيدتان بحفاوة والى طفلتها .

كان ماء الذهب جالسا إلى نوله ، سارحا فى إحدى الحكايات المليئة

بالملائكة والشياطين ،وحين قفزت البنت إلى جواره لم يعرف إن كانت ملاكا ام شيطانا .

كم قالت جدته

" الملاك يظل ملاك والشيطان شيطاناً "

وكم ردت سهر

"الشيطان يمكن أن يظهر بهيئة ملاك فى هذه الأيام احذر يا ماء الذهب"

من يصدق ؟

سهر تتعامل معه كما يريد ولا تكلفه بواجبات ودروس, وتقول له دائما إذا أخذك الخيال فاستسلم له . اما اذا جاء وقت الحكى ينساق إلى درة وتسيطر عليه حكاياتها ، رغم أن شيئا ما ينقصها ولا يستطيع تسميته يحسه فى عفوية وتمرد وعدم يقين سهر .

سلمت الزائرة عليه وعلى ظلال البيت التى لاحت ، ثم جلست تخفى دموعها وتهمس وتشير إلى البنت .

ولكن الصغيرة الشقية لم تلتفت إليها ،اقتربت من النول وعبثت بخيوطه وبادرت.

" ما اسمك "

نظر ماء الذهب إلى عينيها العسليتين وضفائرها السوداء ولم يرد .

تحسس يديها ،ليتأكد أنها موجودة لأن الخيالات كانت تخرج كل فترة من رأسه وتأخذه إلى متاهات لا يتصورها أحد سألها

" ما اسمك "

لم ترد ،نظرا إلى بعضهما فى تحفز

" إذا لِمَ تقولى لن أريك كيف أنسج " .

فرد ذراعيه أمام النول .

نقلت البنت نظراتها بينه وبين أمها التى قالت

" هذه ليلى ،ألا تذكرها يا ماء الذهب ،كانت صغيرة جدا ، ألا تذكر حضرت سبوعها، لقد عدنا "

لم تقل من أين وبدا أن الخيالات تهمس له بشئ ما .

قال

" تعال يا ليلى سأعلمك شيئا "

تقلده فيما يفعل ، ويغرقا فى الضحك .

تنهمك أمها فى حديث طويل مع درة .تجهش فى البكاء .

طمأنتها درة

" لا يمكن أن يحدث هذا ... لا يمكن .."

كانت ضحكات الطفلين تحلق كسحابة صيفية وماء الذهب يسكت خيالاته لأنها لم تكن بروعة تلك اللحظة .

آن وقت الانصراف ،فيشبك أصابعه فى أصابع رفيقته ،ولا يفلتها بسهولة " دعيها يا خالة تنسج معى

تطمئنها درة من جديد وتقول

" دعيها تأتى وتنسج مع ماء الذهب "

تحملها بين ذراعيها ، يراقبهما ماء الذهب حتى يختفيا.

تسألها سهر ،فتجيب باقتضاب . لا تسكت فتحكى درة أكثر

مخاوف ... المخاوف تحاصر المسكينة ،تظن أنهم سيجمعون أطفالنا ويربونهم دوننا، كى لا نتوارث الذكريات "

●●●

صار ماء الذهب أكثر صبرا أمام نوله بفضل ظهور ليلى .

يسأل

" ألن تعود ....متى تعود "

وفى المساء كان يراها دون عناء فى دنيا الأحلام ، يتجولان معا بين جنيات وعصافير .

لم تتكلم جدته عنها ولكن حكت عن أبيها تاجر الشموع الثرى الذى يشترى حدائق غرناطة الواحدة تلوالأخرى ،من الراحلين إلى بلاد بعيدة والخائفين من فقد كل شئ بسبب الوشايات .

جدته لا تكف عن سرد الحكايات الغامضة عنه فتقول

" ذهبت لأبتاع منه بعض الشموع فقال لى: «يا سيدة غرناطة خذى من الشموع ما تشائين ولكن فكرى فيما قلت»

تسكت قليلا كأنما لازالت كلماته تفاجئها

" قال لى يا ملكة الحرير ،لماذا تجهدين نفسك فى رعاية أشجار البرتقال والليمون .الحديقة تبعث داخلك البهجة ولكنها مصدرخوف ومتاعب، أعرف كل شئ ، لك عبدان يتوليان العمل فى الظلام ،لكن إلى متى ؟ جواسيسهم فى كل مكان ،من أجل التفتن فى الوشايات ،كى تحصل المحكمة التى نصبوها على ما تريد ،هل تعرفين يا درة غرناطة ماذا تريد، حدائقنا ، أموالنا ،أرواحنا . لماذا لا تريحين نفسك وتبيعين لى الحديقة "

تنظر سهر إليها فى أسى ،لقد ملت القصة ولا تجد النتيجة التى ترجوها.

تاجر الشموع لا يكف عن لوم زوجته ،فبسبب خوفها تركوا غرناطة منذ خمس سنوات ،وابنته ليلى فى القماط .

عبروا البحر وفى نيتهم أن لا يعودوا .كان لدى الرجل حديقة كلما دخلها شعر أنها الجنة . تخلى عنها بسبب الخوف .

مرت السنوات ولم ينس حديقته ولا بلابلها ،فقرر العودة .

حاولت زوجته أن تثنيه

" هنا بلاد الله "

قال

" الله فى قلبى "

عاد ولم يجد حديقته .تحولت إلى شئ آخر يتبع المملكة الجديدة وأعوانها.

قال لنفسه

" لقد جمعت الأموال من تجارة الشموع وسأشترى حدائق الراحلين والخائفين ".

أرسل زوجته إلى درة مرات.

كانت المرأة تأتى مع ابنتها ليلى ،تتكلم قليلا عن الحديقة وكثيراً عن أرقها وخوفها

" بالأمس أحرقوا الشيخ الذى ضبطوه يصلى الظهر"

تغمغم درة

" أحرقوه "

تهز المرأة رأسها

" يقولون إنهم عرضوا عليه كؤوس الخمر ولحم الخنزيرفأكل وشرب ورغم ذلك أخذوه إلى السجن ،اختفى طويلا حتى ظنه الناس مات،ولكنهم أعادوه للمحاكمة ،صار انساناً آخر ،كان هزيلا ، ذاهلا ،يكلم نفسه . سألوه عن كل كلمة نطق بها فى الماضى وكل مكان خطت فيه قدماه ،من صافح ومع من تحدث ،كانت كلماته متاكلة وإجاباته غير مسموعة وأحيانا كان ينخرط فى بكاء شديد أويغرق فى نوبة ضحك ،أمروا بجلده ،وقف عاريا أمام الجميع وانهالت الضربات القاسية عليه ، انتفض جسده العجوز

وصرخ "يا الله" ، وسجل كاتب التحقيقات كل ما نطق به أثناء الجلد ، أحرقوه لأنهم رجحوا أنه كان يستغيث برب المسلمين"

شقت دمعة وجه درة ،فكرت لحظة أن تبيع الحديقة وترحل .

تقول المرأة :

" زوجى منذ أن فقد حديقته صار مجنونا بالحدائق ،يقول للجميع أريد حدائقكم لأريحكم من الخوف والوشايات ،كأنه فى مأمن ، ليتنا نرحل إلى حيث كنا ".

قالت درة أخيرا

"لا لا يمكن أن أبيع الحديقة سأموت هنا تحت أشجار الليمون "

يزقزق ماء الذهب وليلى فى تلك الأثناء.

وإذا كان الوقت مساء يراقبان فى صمت الشموع المشتعلة وما تعكسه فوق الجدران ، كأنما اكتشفا سراً .

يلتفتان فيتحرك ظلان فوق الحائط ،تكسر ليلى السكون وتطلب منه أن يحكى لها حكاية .

يقول :

"هل تعرفين أن ظلى لا يطاوعنى ولا يفعل ما أريد وأننى أفعل ما يريد فى أحيان كثيرة كى لا ينكشف الأمر

نظرت إليه ليلى فى تعجب فقال

"ذات يوم ركض ظلى وركضت خلفه وتوسلت إليه أن يتوقف ولكنه لم يهتم وجذبنى وراءه. مررنا فى أزقة ضيقة وكان الناس يتكلمون كلاما لم أفهمه ووقف رجل عجوز ونظر إلى وضحك كأنه اكتشف أمرى ، وكانت الطرق ملتوية أمامى بلا نهاية . لم أعرف أين أنا ،حتى وصلت إلى أحد الأبواب ،دفعه ظلى واختفى وخشيت أن أفقده إلى الأبد فدخلت أبحث عنه.

ووجدت بالدخل العديد من الظلال لأولاد ، بنات ، شباب ،عجائز ، سألتهم ،فأشاروا الى أحد الكتب .

وجدت كتاباً مذهباً داخل كوة ،قلبت صفحاته ،أخذتنى الصور إلى أماكن بعيدة ، عرفت حكايات أعجزعن روايتها ،وجدت ظلى منحشرا فى إحدى الصفحات.

قلت له :

"هيا لنعود قبل أن يكتشفوا غيابنا "

جلس الظل ووضع ساقا على ساق وقال :

" ولكنى لا أشعر أننى فى مكانى الصحيح ،لا أريد أن أكون ظلك بعد الآن ،أنت تقضى نهارك وليلك فى أشياء لا أحبها وأنا مضطر طوال الوقت أن أفعل مثلك فقط لأنى ظلك ،هل جربت يوما أن تفعل شيئا لا تريده ، هل تعرف بماذا أشعر

لم أستطع أن أجبره على العودة لأنى فهمته ، وشعرت أننى أيضا فى المكان الخطأ وأننى أريد الهروب مثله .

قلت له

" معك حق فحياتى مملة قاسية مليئة بالتعليمات والدروس ولا شئ فيها سوى النول والخيوط،معك حق "

واستدرت لأتركه حيث يشاء ليجرب ما يريد وكانت الظلال الهاربة من أصحابها تحيط بنا وتهز رؤوسها .

ولكنه ترك الكتاب فى آخر لحظة وقرر أن يكون إلى جوارى لأننى فهمته.

ومنذ ذلك اليوم ونحن صديقان ،وأحيانا يأخذنى فى جولات الى أماكن غريبة فى غفلة من أهل البيت ،حتى أجد المكان الذى أريد وأنهى تعاستى .

وأحيانا لا أستطيع الخروج وأسمح له بذلك وحده ،فيتجول كما يشاء ويعود ليقص على ما رأى وسمع .

ولكن فى الفترة الأخيرة كان يعود من جولاته السرية صامتا ولا يقول شيئا .وحتى الآن لا أعرف السبب .

تنظر ليلى إلى ظله الذى تضخم تحت ضوء الشموع

" لابد أنه سيقول لك يوما "

يهز ماء الذهب رأسه فيهز الظل رأسه ، تضحك ليلى وتصدر صخبا .

يشير إليها ماء الذهب فتصمت. يتأملان سويا ضوء الشموع والجدران .

●●●

ذات ليلة جلس ماء الذهب فى غرفته يتأمل ظله

" يبدوأنك تفكر أن تتركنى ولا تعود أبدا ،فلم تعد تحكى لى ما يحدث فى غرناطة "

أطرق الظل لقد كان فى البداية مجرد ظل هارب من صاحبه مع عدد قليل من الظلال ،ولكن فى الأونة الأخيرة ،صارت طرقات وأزقة غرناطة مزدحمة بعدد لا يحصى من الظلال الهاربة .

قال

" هل تعرف بمن التقيت اليوم "

انتبه ماء الذهب فواصل الظل كلامه

"ظل ليلى يتجه الى الشاطئ ويركب مركبا "

" وليلى "

فكر الظل قليلا ولم يرد .

ثم أكمل

" ورأيت ظل سهر يرقص ويدندن ،قال لى : إنها تحبس أغنية ،وأنه انتظر طويلا ولا يستطيع الانتظار أكثر ،وأن غرناطة صارت مكانا كئيبا لا يحب الأغنيات .

ولهذا قرر عدد من الظلال الرقص والغناءوتبادل التهانى والمجاملات فى الأفراح والأعياد والتكلم بالعربية والصلاة ، كما كان يفعل الناس قبل زمن الخوف .اذا كانت غرناطة قد ضاعت من الناس فالظلال يجب ان تظهر شجاعتها وتثبت حبها للمدينة وتفعل ما عجز عنه الناس .

وكان هناك ظل بائع الشموع يحاول أن يقنع باقى الظلال بالعودة الى أصحابها ، لاقناعهم ببيع حدائقهم ،لأن المسألة بالنسبة إلى صاحبه حياة أوموت .

ولكن الظلال اعتذرت وقالت: إن أصحابها لا يتحاورن معها ولا يشعرون بوجودها ، وأنها انسلت عنهم خلسة ،فشعرت ساعتها أننى محظوظ ،وقلت للظلال : إن صاحبى مختلف فقالوا الأطفال دائما مختلفون .

ولم يكن ظل درة من بين الظلال الهاربة ،هونحيف ،بطئ مثلها ،ويبدوأنه يحبها،و يراها بارعة ومسلية ، ترشيه بأغنيات وكلمات عذبة كلما شعر بالضجر"

بعد هذه المحادثة بيومين عرف ماء الذهب أن ليلى سافرت مع أمها بعيدا وتحدثت درة عن رسالة تركتها المرأة إلى زوجها قائلة له ما معناه: إنها لم تعد تحتمل الخوف ، لأنه موت بطئ .

سأل

" لماذا ذهبت ليلى ، ولم تترك ظلها يذهب وحده"

نظرت إليه درة فى عدم فهم

قال

"الحياة دون ليلى صعبة لقد حكيت لها أسرارى "

ضحكت درة

"وأى أسرار لولد فى مثل عمرك"

" لا لا يمكن أن أخبرك "

●●●

أصابه الأرق وحاول تذكر وجه ليلى ،لقد مرت شهور منذ أن ذهبت وباعدت بينهما المسافات .

ولكنه فوجئ أن الوجه تغير ،آنذاك شعر بالخطر ،وأن ذاكرته تلعب بذكرى عزيزة ،تضيف وتحذف ما تشاء من خطوط وملامح دون اذنه .

حاول أن يخلد قسماتها قبل أن تضيع ، مستعينا بالنول والخيوط ،ولكن أصابعه تعثرت وتقطعت خيوط كثيرة وأخطأ فلم يوفق فى اختيار اللون ولم يضبط المسافات ولم يراع النسب ، فكانت النتيجة وجها شائها .

لجأ إلى جدته فقالت فى برود

" لأنك كسول ولم تهتم بما أقول فشلت ، اذهب وحاول يا كسول "

يتوسل

" تعال وساعدينى أرجوك "

تنظر إليه درة بعينين منطفئتين

" لست موهوبا

آلمه ما قالت رغم أنه كان يردد كلما اختلى بنفسه "أنا فى المكان الخطأ ".

لم ينم ماء الذهب طوال الليل،لقد حفرت داخله ندبة ،حاول مرات أن ينسى قسوتها، وانكب فوق النول ،نسج حتى شحب وهزل جسده ولم يصل إلى شئ ،كانت على حق .

شعر بمرارة العجز ،وتكوم آخر المطاف إلى جوار الخيوط المزقة .

أغمض عينيه وترك نفسه ، انه يسقط فى بئر مظلم ولا أمل فى النجاة .

وجدته أمه فى الصباح . نادته فلم يرد . كانت أطرافه باردة . وانفجر الألم الذى كانت تخفيه، بكت مصيره وحظها وظلم الحياة وقسوة غرناطةٍ الجديدة على أهلها ،وأهلها على بعضهم ،وطفلها على نفسه . بكت نيابة عن الجميع .

هرولت اليها درة وسهر وباقى أهل البيت .

انحنت سهر فوقه

" انه يموت "

أزاحتها درة

" لا لن يموت "

أشارت اليهم ،فحملوه الى إحدى الغرف . لم تتبعهم أمه ،جلست ذاهلة هى والظلال .خطر لها خاطر خبيث ، لومات سيفلت ولن يضطر أن يحيا مثلها فى الظلام ،التفتت إليها الظلال فى دهشة وخوف.

بعثوا إلى الطبيبة التى جاءت على عجل ، وسقته ترياقا

"دعوه سيكون على ما يرام "

ولكن الأيام كانت تمر وحالة ماء الذهب تسوء.

انتشر خبر مرضه فتوالت الزيارات ، النصائح ،الصلوات السرية .

نصحتها إحدى الجارات أن تذهب به إلى الكهف

استفهمت درة

كهف غرناطة ؟ "

عادت الجارة تعدد أسرار الكهف وقوته .

(٢)

حديث الظلال لا يسمع بسهولة ،فهى تتحرك فى خضوع .تتبع أصحابها، تنبسط وتنقبض ،تخفى ضجرها وتتوارث حكمة الظلال ،فلتبق حياتنا سرية ،وذات يوم سنفعل ما نشاء ،ونقتل الوقت بالتسامر .

هناك بشر يعيشون حياة الظلال ،بينما تتجول أفكارهم فى حرية داخلهم دون أن يكتشفها أحد ،بعضهم كسر حاجز الخوف وتحرر .هؤلاء التفتوا إلى ظلالهم وتعاملوا معها بفهم ،وحفظت الظلال الجميل وظلت تذكر حكاياتهم حتى بعد أن رحلوا عن العالم ،وتركوها وحيدة تسكن الكهوف والبيوت والزوايا .

كانوا يتهامسون لابد أن يأتى الوقت المناسب لنروى .

هناك ظلال أخرى هاربة من أصحابها ،ونسيت طريق العودة اليهم ،فبحثت عن مأوى جديد ،وفرصة لتقول ما لديها

كان كهف غرناطة مكانا جاذبا للظلال كافة ، سميت باسمه مدينة صنعت مجدها .عرفوا أيامها الرغدة ووصلتهم أخبار عن مآسيها .

اهتزت داخله الظلال ذلك الصباح . تلامست وابتعدت كالعادة حتى أظلمت السماء فاختفت .

مر بعض الوقت ،أضاء الكهف بمشعلين .

عادت الظلال للظهور ولامست ظلين وافدين، قالا

" نحن ظلا العبدين

وأشارا الى ظل نحيف تراقص فوق الجدران وقالا

" ظل السيدة "

يتقدم العبدان ،فيضع أحدهما ماء الذهب برفق فى جانب من الكهف ،

والثانى يحاول تثبيت المشعل الذى يمسكه فى أحد الأركان ،ثم يأخذ مشعل سيدته ويضعه فى مكان مواز .مالت الظلال بعضها على بعض وتهامست "انها درة صانعة الأبسطة ،لماذا أتت ومن هذا ؟"

يمضى العبدان ،فيفكر ظلاهما فى الاستقلال والبقاء فى الكهف ،ولكن التفاتة من العبدين جعلتهما يتراجعان ، ليس الآن ،وحياة صاحبيهما بهذه الصورة ،وكل منهما يحتاج لمن يهون عليه ولوكان ظل .

دارت عينا درة فى أنحاء الكهف لتعيد اكتشافه ،هل تغير ؟والى أى حد؟ راقبتها الظلال فى حذر ثم تحلقت حول ماء الذهب

سأل أحدها

" هل يسمعنا "

رد آخر

" لا أدرى "

عادت الظلال تهتز ، تعرفت على ماء الذهب ،انه يفهم لغة الظلال ، لقد أعطى ظله الحرية، ولابد أنه يتجول كعادته فى مكان ما.

انحنى ظل فاتنة

" المسكين ضحية نبوءة لم تتحقق "

التفتت الظلال فى جزل وتقافزت باعجاب حول ظل الفاتنة ،الذى لم يهتم لأنه واقعى ويعرف أنه مجرد صورة معتمة لامرأة جميلة ،طلب من الظلال التصرف بجدية فربما آن أوان الكلام . اعترض ظل عجوز ولوح بظل غصن

" لمن نحكى ومع من نتكلم ألا ترون انه لا يفيق "

تشاوروا

" يمكن أن نتسلل الى أحلامه "

"هل هذا سهل

" فلنحاول الأطفال يحبون ذلك"

كانت الظلال خائفة من قبل أن تحكى للشخص الخطأ ،والآن هى خائفة أن تفلت الشخص المناسب .

من سيبدأ "

" أنا "

" لا أنا "

مر الوقت ولم تصل الى حل .

غافل أحدها الجميع وتسلل خلسة ،وبمجرد وصوله الى أحلام ماء الذهب ، تحول إلى سيد نحيف ملامحه واضحة وثيابه ملونة .اكتشف صورته الجديدة ،لم يصدق ، انتابته مشاعر لذيذة لم يجربها من قبل ، فلم يعد بقعة داكنة تسقط على الحوائط والطرقات ولكنه اكتسب ملامح وكيان.

همس " إنه حلم " ولم يعرف كيف يتصرف ولا ماذا يقول .

وفجأة رجع إلى صوابه ،تذكر مهمته ، فقال

"لا أريدك أن تظننى ظل متخفى فى شخصية صاحبه ، لا تنظر إلى مظهرى، ففى الأحلام يحدث هذا وأكثر ،فيكون للظلال شكل وهيئة وملامح .

لا أحد يفكر فى الظلال ، يسحبونها إلى حيث شاءوا .يجلسون على المقاعد الوثيرة والحواشى المطعمة بالذهب والفضة ،ويتركونها تحت الأقدام لمصيرها ،من قال إن الظلال لا تتألم .ولكن كيف لها أن تشكو.

كان صاحبى تلميذا للمغنى زرياب القادم من بغداد ، أه لوتعرف ماذا فعل زرياب حين حل بالأندلس ، لقد غير كل شئ ،الموسيقى ،طريقة ارتداء الملابس،قصة الشعر وتسريحه بطريقة تبرز جمال العنق والجبهة ،طريقة الأكل وتقديم الطعام ، بفضله صارت الأوانى الزجاجية مفضلة ولعب الأندلسيون الشطرنج .

كان صاحبى مثل ظله ، يمشى إذا مشى ،ينحنى كلما انحنى ،ويحاول أن يقلد ضربات أصابعه على العود ،ويتحمل غروره ،كى يعزف ويغنى معه فى القصور ويجالس الأمراء .

كلما اختلى بنفسه ينظر إلىّ ويقول لي: ،أنت ظلى ولكنى لست مثلك ولا أعرف كيف تحتمل حياتك ،ان حياة الظلال لها ناسها ، لا أستطيع الحياة هكذا ،أريد أن أكون نفسى وأغنى كما أريد ،بداخلى نغمات يمكن أن تتحدى زرياب .

إنه يقول لى جرب ... جرب فقط أن تكسر القواعد وستفشل.

تبعته كل هذه السنوات خوفا من السقوط فى الخيبات ،. فكل قرطبة تتبعه وتنسب إليه كل جميل .

من أنا كى أقف فى وجه أسطورة قرطبة وفتاها المدلل.

قال لى صاحبى ،أنت ظلى ،كنت كذلك وستظل طوال عمرك ، فلن تفهمنى .

كيف تعرف أن حياة الظلال عذبتنى .تبعت زرياب طويلا ولا أستطيع المواصلة ،انه يبتلع عقلى وروحى .

يقولون زرياب علم الجوارى كيف يكتبن الأشعار على الآلات الموسيقية وعلى أثوابهن ، لم تكن أبدا فكرة زرياب بل فكرتى . يقولون زرياب أضاف وترا جديدا إلى العود وأسماه وتر النفس ، هذا أيضا أحد ابتكراتى ،ألم تشهد على ذلك ،قال لي العود صورة مصغرة للانسان ،أوتاره أربعة ، الأصفر يمثل الصفراء ، الأحمر يمثل الدم ،هذا الوتر غير الملون يقابل البلغم ، الأسود يقابل السوداء،قلت له

وأين وتر النفس ،أنت ظلى ألم تشهد على ذلك .

أردت أن أكشف حقيقته للجميع ،فهمس فى أذنى من أنت حتى يرونك ، أنت أحد ظلالى الكثيرة . انكمش صاحبى وعاد ليتبعه .

وذات يوم تردد داخله لحن مختلف ،همست روحه لا تعزله بين جدران القصور ، هذا لحن يستحقه الناس فى الحقول والأزقة والساحات .

هذا لحن من الممكن أن يرفعك فوق زرياب اذا عزفته للخليفة ،ولكنك ستكون أسيره إلى الأبد ستأتى وترحل دون أن تفهم ما الذى يضحك ويبكى الناس .

أخرج به وأعزفه فى الشمس والهواء وتذوق النجاح الحقيقى ، والتصفيق والهتاف القادم من القلب . هبه للبسطاء فهم يستحقونه وسيمنحوك الحب.

كان هذا أمرا شاقا على صاحبى فقد تجاوز عمر الشباب وكانت خططه وأحلامه محددة بما يسمح به أستاذه ،والبداية الجديدة شاقة دائما.

قال لى أنت ظلى ولكن حياة الظلال قاسية ، سأجرب حياة الحرية ، سأعزف لحنى خارج جدران القصر . واذا حصلت على حريتى ، لن أعاملك بعد ذلك كما تعامل الظلال ، ستكون حرا .

كنت خائفا مما يقول ولا أفهمه ،ما معنى أن أكون حرا ؟.

تبعته إلى حيث أراد ،أمسك بالعود وترك أصابعه تتحرك كما تشاء ، كانت النغمات قادمة من أعماقه .

لم أكن سعيدا فى البداية . كان يتحرك قبل ذلك فى القصور والمناطق الفخيمة ،وكنت أسقط على الديباج والحرير والزهور ،أما بعد أن غير طريقه ،

وجدت نفسى بين العامة أسقط على جدران وطرقات قرطبة المليئة بالحصى والتراب .

وكانت تحتك بى ظلال العامة فى رعونة وتلتحم بى فى جرأة، شعرت بالأسى الى أين يأخذنى صاحبى .

ولكن بمجرد أن بدأ العزف نسيت من أنا وأين أكون وشعرت بالرهبة والخوف كلما توغل فى النغمات .

كنت أراقبه فأرى شخصا لا أعرفه ،ولكنى أتبعه .

انتهى من العزف ،هلل الناس ، رفعوه فوق الأعناق . التفت إلى وغمز وقال يا ظلى هل تريد أن تبقى ظلى ،وكان هذا كلاما عجيبا أسمعه لأول مرة

قلت

"لقد خلقت هكذا "

قال

"ولكنك الآن حر

بدأت أجرب حريتى الصعبة وصرت التقى بظلال كثيرة وأتجول فى أماكن لم يرها صاحبى .

وكلما شعرت بحريتى أكثر، تتفجر لديه نغمات جديدة.

لقد حررنى ،وحرر قلبه وحواسه ليعبر إلى الالهام وتأتيه الألحان .

وشعرت بالأسى على الوقت الذى ضيعته ،أرضى بما ترضى به الظلال.

سكت الظل ،وتأمل نفسه ، لقد أوصلته الحرية إلى هنا ،ولكنه لم يستطع أن ينسى خوفه الأول ورهبته من التجربة ،وأن هناك ظلالاً مسكينة مازالت مقيدة ، لم تسلك طريقه.

تمكن ظل آخر من دخول أحلام ماء الذهب ، تحول إلى عود وبدأ يعزف ألحانا مدهشة ،جعلت الولد يتحرك فى مرقده ، ودرة ترفع رأسها نحوه فى أمل .

●●●

تململت الظلال وشعرت بالغضب . فهناك ظلان أنانيان يريدان الاستئثار بالحلم .

دخلت الكهف عجوز أخرى ، التفتت إليها درة

" سهر ! ما الذى أتى بك؟ "

ظهر رجل من خلفها يرتدى ثياب الفرسان ، تقدم نحوالصبى المسجى .

تفرسته درة قليلا وعرفته ،تغيرت خطوته ،صار يحجل مثل طير عليل ،ولكن رائحته لم تتغير ،ولا توهان عينيه ، هوابنها دون شك .

أرادت ان تضمه ولكنه ابتعد . أراد أن يسأل وتراجع .

مرت حياته أمامه فى لحظات كأنها حياة شخص أخر وأخذ يتعجب لمصير ذلك الآخر.

قالت له درة

" ستبقى من أجله .. ستبقى من أجل ولدك "

انغرزت كلماتها فى قلبه . ولده !

كل هذه السنوات ولا يدرى بوجوده ، عرف عنه بالصدفة ذلك اليوم . عاد ليودع الجميع قبل أن يخوض مهمته الشاقة .حكت له سهر ما حدث ، أما الجارية التى أنجبته له فلم تخبره بشئ حين التقيا . كانت ذاهلة كأنما تتحكم فيها قوة أكبر منها .

قالت له " ناديتك كثيرا فى أحلامي" ، .

وتعجب ، امرأة تحلم به ولا يذكرها .

اقترب من ماء الذهب ، لم يشعر بشئ فى البداية ، ثم سرى خدر داخله واستسلم للدهشة ، ثم تسلل اليه حزن ، ثم انتابته رغبة فى أن يقترب أكثر، ليته ولد فى زمن آخر أيام البهجة .

لا يمكن أن يبقى ، سيمضى مع الآخرين ، لم يخلق لدور الأب ، لقد وهب حياته لهدف كبير .

انحنى وهمس للولد فى أذنيه

" هل تعرفنى ؟ "

لم يقبله أراد ولم يستطع .

انتابته مشاعر كثيرة ، هل يقول له ؟ ماذا يقول ؟ [illegible]

سأستعيد لك غرناطة كي تلعب وتعيش في وطن

همس له ، لقد اجتمع المخلصون أخيرا ، [illegible] في بقي ، سنقتحم أروقتنا ، تصيبنا ملكا من بيننا . [illegible] درة ، لن يعجبها وستصرخ ، ألم تجدوا غير ف [illegible] ف شأنك أنت ، ملخصيره ، هو من بني أمية وشـ [illegible] أعدناه إلى حقيقته واسمه الآن بن أمية ، لن يخ [illegible] منه ، سيكتم الأخبار داخله حتى يتحقق النصر [illegible] ولم يستطع .

مضى واختفى في الليل .

كان ظل سهر يرقص في تلك الأثناء ، [illegible] فيواصل ويقول

دعوها تفعل مثلي ، دعوني أكمل رقصتي ، فلم [illegible]

سهر ودرة تتشاجران ، تقول درة

هكذا أنت دائما لن تتغيري

وفجأة خرج ظل من حلم ماء الذهب ، سقط [illegible] قال

تركت العود يعزف في أحلامه ، إنه يرفض [illegible] يتكلم عنه كظل ، فهو الآن عود وله نغمات تسحر ولن [illegible]

تقدم أحد الظلال وقال

أفسحوا لي فلن يوقفني أحد

رأى ماء الذهب امرأة كالشمس تظهر في حلـ [illegible] قليلا ثم تختفي ، ليبدأ ظلها الحديث

أنا ظلها ، لم أتركها أبدا ،حتى بعد أن اقتربت من الخليفة القوى . شردت منذ رأته وخفق قلبها بشدة . كانت تسير وتتعثر فى دهاليزه وأنا خلفها أسقط حيث قدر لى .وأتلامس مع ظلال حاشيته أحيانا ،فنتبادل الأسرار.

عرفت ما عجزت عن معرفته ، هذا جشع وهذا خائن ،وتلك تكره نفسها وتلك تكره الناس .كنت من قبل أتسامر مع ظلال البسطاء ذوى القلوب النقية .

حاولت أن أنبهها ، لقد تغير عالمى فاحذرى عالمك .فتن الخليفة بها ولكنها كانت طموح ، لم ترض أن يعطها قلبه وفق إرادته وأهوائه .

أرادت أن تنموقصتهما وتتجاوز النظرات الناعمة والكلمات التى تذوب كلما أشرق النهار .

نساء أخريات كن يعقنها بخضوعهم التام له ولرغباته . كيف يمكن لواحد مثله أن يفهم المرأة وسط هذا الزحام .

التقيا ،همس لى ظله فى تلك اللحظات الخاطفة بالكثير عنه .

خفت مما سمعت ، سيدير ظهره لها ويذهب إلى أخرى ، لا وقت عنده لما تتمناه ،سيتذوق النساء كما يفعل مع الحلوى ، لن يلتفت إلى أنهن مختلفات، لا يمكن أن تحظى به امرأة واحدة . كنت خائفا على صاحبتى منه .

ولكنها مضت فى طريقها ولم تستمع الى أحد سواها ، ثم حدثت المعجزة ورأيته يتحول ،ويمر معها بمراحل العشق .

جرب معها لأول مرة اللهفة والوجد ، العزوف والكبرياء ، الهجر ، الخصام، محاولة التخلص من أسر الحب ،والنسيان ، ثم بعثه كالجمرة من جديد .

صار الرجل القوى يحب ضعفه أمامها ، يهرب منه ثم يعود ليهرب .

هكذا فى شد وجذب حتى صعدا سلم البهجة والألم سويا الى منتهاه واكتملا .

قرر أن يعلن سره أمام الجميع ، كلف الفنانين والمعماريين وكل حاذق فى الأندلس بانشاء مدينة لا مثيل لها .

سيكون اسمها كاسم الحبيبة وسيضع تمثالها على الباب الرئيسى .

صارت الزهراء أسطورة ،ألهمت كثيرين وتفجرت بسببها المواهب .

كان الوقت يمر والزهراء ترتفع مبانيها وتتضح معالمها . اختار لها الخليفة أن تكون فى المكان الذى كانت ترنواليه حبيبته ،نقل قصره وبيوت رجال البلاط ومساكن الجند إلى هناك .

ثم بدأ النقصان وفرقهما الموت ذات مساء بخفة ومضى كأنه لم يفعل شيئا .

لا أدرى متى وجدت نفسى حرا أسقط حيث أشاء ،أنقبض وأنبسط بسبب الذكرى .

سآخذك فقط إلى مجلس الخليفة المفضل وسأدعك تكمل الباقى ،إنه حلمك ويمكنك أن تضيف ما تشاء .

صار الظل أكثر شحوبا وهويسقط على الجدران الذهبية ويصعد إلى السقف يتفحص قبته ويتموج عند الحوض المذهل ،الذى اصطفت حوله تماثيل من الذهب لأسد وتمساح وغزالة وحمامة وحدأة وعقاب وثعبان وفيل، يتناثر رذاذ الماء من أفواهها بلا نهاية .

شحب الظل أكثر فأكثر حتى اختفى .

وكان العود لايزال يعزف ألحانه ويرفض الخروج من الحلم ويؤكد أنه لم يكن أبدا ظلا .

ظهرت ليلى من حيث لا يدرى وأخذت تعزف بأصابعها الصغيرة على أوتاره ، دارت فى كل أنحاء القاعة وأشارت الى الذهب

" من هنا "

يتبعها الى حدائق الزهراء التى لا يشبهها شئ ، تلتفت اليه فيشرق وجهه ، تشق طريقها بين الورود تتجاوز شلالات صغيرة بسرعة ولا يستطيع اللحاق بها ، تختفى بين الزنابق ، ينادى عليها فلا تظهر .

●●●

لا يعرف ظل الزهراء كيف خرج من الحلم ، حدث هذا بصعوبة .

لم يكن مبتهجا ومستعدا للأسئلة ، اقترب منه الظل العجوز ممسكا بالغصن

" أريته الدنيا "

انتشى غصنه وأكمل استجوابه

" أريته أطلالها ، قلت له ما حدث وكيف حدث "

حاول أن يفلت من الاجابة ، هز الغصن واستند اليه كما يفعل العواجيز

" لم تقل ! سأدخل وأكشف له الحقيقة "

انتبه ظل سهر إلى الحوار الدائر ، توقف عن الرقص واعترض طريقه

" لن تدخل ... لن أسمح لك ... ألا ترون ... نحن نحيا فى كابوس يومى والولد ليس فى حاجة الى كوابيس أخرى"

أملى شروطه ، استمعت الظلال ، تمايلت يمينا ويسارا .

أحد الظلال انسل داخل حلم ماء الذهب وتحول الى عينين حزينتين .

تجول معه فى أماكن غريبة ، وحين خرج أقسم أنه لم يخالف الشروط.

ودخل ظل آخر وفوجئ بوجود بقايا نظرات حزينة .

خرج وقال : إنه لم يستطع الحكى ، كانت النظرات الحزينة تمنعه .

وكان الظل العجوز يهز غصنه ويقول :

" ألم أقل لكم "

أنصت قليلا

" ألاتسمعون "

تسربت نغمات العود من الحلم

" اذا سكتنا كيف نسكت النظرات والنغمات "

●●●

رفعت سهو رأسها كأنها سمعت شيئا . تمايلت الظلال في أنحاء الكهف .

تابعها ظلها بأسى ، لقد عاشرها سنوات ،ويفهمها أكثر من نفسها .

كانت صغيرة وأختها منكبة على تولها ،والى جوارها بكرات الحرير الملونة،وأبوها يهمس لها ويلوح بالطوى .

شعرت بالغيرة وبكت .

جرت دون توقف لعلها تتخلص من هذا الحزن ،أبوها لا يحبها ، يفضل عليها أختها درة، إنها وحيدة .

التفتت إلى ظلها وكلمته كثيرا واستمع إليها . ولكن حزنها لم ينته .

جرت في طرقات غرناطة ،كانت ظلال كثيرة تهرول في ذلك الوقت وأبواب تفتح وتغلق ،ظلال تخرج من البيوت منحنية من ثقل أحمالها .

راقبت سهو الصغيرة الظلال بشغف .

وفجأة شق دخان كثيف سماء غرناطة ،واتخذ أشكالا مخيفة ،هزتها وأنستها ألمها لحظة .

هرولت خلف الدخان والظلال . وجدت نفسها في إحدى الساحات ،وهناك كومة من الكتب والأوراق تتكلها النيران .

الظلال كثيفة والنيران تلتهم الكتب بلهفة .

أحدهم يصيح والآخرون يمتثلون ،ويحملون المزيد من الكتب إلى النار التى لا تكتفى .

• تحدق فى الدخان فتراه يتحول إلى حيوانات وطيور مفترسة .

يمسك أحدهم يدها الصغيرة ويحاول أن يبعدها فتفلت منه وتقتر ب من النار ،تطير ورقة نحوها وتستنجد بها من الفناء ،تلتقطها وتدسها فى ثوبها.

يأتى الليل ولا تظلم الساحة . النيران لا تهدأ ومزيد من الكتب تلقى اليها.

يلتفت اليها ظلها ولكنها تنساه ،ولا تنظر نحوه أبدا بعد ذلك ، ماذا نسيت أيضا ،لا أحد يدرى .

تجتمع ظلال الكهف حول ظل سهر ، توشوش له فيقول وهويراقب صاحبته

" ماذا حدث لها كانت تعرفنى

تتحرك سهر ببطء إلى فوهة الكهف

" ما هذا الصوت ،هل هوخرير النهرالقريب ؟"

تفكرفى نهر حدرة، لم تذهب إلى شاطئه منذ سنوات ،ولكنه موجود داخلها.

كم شربت من مائه العذب وألقت أسرارها فى قلبه .تعود إلى حيث يرقد ماء الذهب تهمس

" لوتعرف كيف تبوح لقلب النهر .. لوتعرف ماذا يخفى

يشق النهر أحلام ماء الذهب ،مخترقا حصار الظلال

ترتبك الظلال وتتشاور

" وحكاياتنا "

يطربه الخرير ،يسكت العود ويخشى أن تطرده موسيقى النهر .

●●●

قررت مجموعة من الظلال أن تظهر فى حلم ماء الذهب مرة واحدة .

فدخلت الحلم معا ووقفت أمام بناء هائل ،دار أحدها حول السور وقال " يمكننى التسلل الآن بسهولة إلى الداخل كباقى ظلال غرناطة ، لم يكن هذا ممكنا فى الماضى ، صاحبى أحد بنائى هذه العظمة ،كان يعمل بالليل تحت ضوء المشاعل ،فينعكس الضوء الأحمر على الجدران ،كان البناء يرتفع ويذهله ويشعر بالأسى لأنه يبنيه لغيره ولن يسكنه أبدا ،يتسلل بمشعله إلى المساحات الشاسعة التى لم تبن بعد ،وتأخذه الأفكار ويتخيل نفسه داخل المكان وأنه صاحبه، لحظات خاطفة يفيق منها سريعا ويعود الى عمله .

اكتمل البناء ولم ينس أن هذا البهاء والجمال من صنع يده ،كان يدور حول السور ويحاول التلصص على ما يحدث فى الجانب الآخر ،ويفكر فى المتع التى لن يعرفها أبدا .يصطحب ابنه ومن بعده حفيده ويقول ، أ نا من بنيت هذا.

ينظران إليه فى ريبة ،يشعر بالخجل، فأبواب البناء الضخم مغلقة فى وجهه.

وساكنوه ينكرون فضله عليهم . يعود إلى مسكنه المتواضع فى أحد أزقة غرناطة .يحس أنه مجرد خادم ، بنى السور والجدران كخادم ،هكذا نظر إليه ابنه وحفيده ،وكان هذا قاسيا .

رحل صاحبى و تركنى أهيم كظل ،صار بامكانى الدخول والتجول فى باحات البناء ودهاليزه ولكنى لم أفعل ورأيت شيئا لم أنتبه إليه فى السابق.

كانت الظلال تهرول خارجة من أبوابه ،وتقفز بعيدا عن أبراجه الشاهقة، حاولت أن أفهم ولكن الظلال كانت خائفة أن تتكلم .

عرفت ما خفى بعد مدة ،فكثير من الدماء تسيل فى الداخل ، لم يكن بناء للمتع ،ولكن ستاراً قوياً للتآمر والخيانة . اصطحبنى ذات يوم الى

الداخل ظل ،ظله ظل جارية سكنت المكان ..سرنا خلال حديقة غناء مليئة بالزهور ،الأشجار ،الدراقن البرية وحيوانات أخرى مدهشة ،عبر ظل الجارية جسر وتبعته الى حيث الضريح التي سمعت عنها الأساطير ،أدهلتني بحدائق أكثر بهاء ،طيور لا تعد هنا وهناك ،أخذتني حرير الليالد وزرقة الطيور ،مررنا بمبادين وشوارع من الزئبق ،، كللت جبال الثلج في الخلفية، وحرير شعر شمل الذي تسكنه القصة تأتي الينا ،ودخلنا مبنى بديع ،في إحدى قاعات صور الملوك غرناطة ،وفي قاعة أخرى صور لانتصارات

ولكن مكان كان مهجورا الا من عدد من الظلال التي أخذت تتمايل وتسقط منا ،هناك في بوح ،وفي احدى الغرف وجدت رجلا يبكي ولا يأبه بالجنة التي حوله ،مسح لي ظل الجارية انه ملك حزين انقلب ابنه عليه واستولى على سلطته ،ستارت تحيط به ،ستضيع غرناطة على يدي ولده الأرعن ،ستضيع وهاب ،ويختفي الأمان.

خرجت سريعا من المكان ،تاركا الظلال في مرحها والملك في حزنه ، وشعرت بضيق ،وتعب ،بلد عمره جريبا وراء الأوهام ،خدعه الحائط الشاهق الذي بناه ،ما يخفيه من أوجاع ..

انسحبت الدموع في صمت ،حاولت ظل سهر الليل ليوقفها

مفعمة

لا تنسى

وطنت

على

عهد

حريرية ملونة ، متى خرج من الكهف ، لا يمكن تحديد ذلك ،من الراجح أنه بات ليلة واحدة ولكن ربما بات ليلتين أوثلاثا أوما زال يبيت حتى الآن .

انهمك في العمل ، من كان يدخل خيالاته ،بماذا كان يهمس ،لا أحد يدري سواه ،أصابعه تصعد وتهبط فوق التول ،ودرة تراقبه وتهمس لنفسها

لم يتعلم شيئاً ، إنه يخرق القواعد ، لا فائدة "

تكتم هذا ولا تقوله ، فلن تحتمل أن يعاوده المرض .

ماء الذهب ينقل إلى الخيوط ما يشير به قلبه .

أصابعه تقوده إلى حيث لا يدري ،وكلما أتم جزءا من العمل توغل في مناطق أكثر صعوبة .درة تتابع ،فيدق قلبها ،وتشعر بشيء له برودة الثلج ولسعة النار .

ما هذا؟

لا تعترف بما ترى .

ينسج ماء الذهب قصصا سرية ،فتحاول التذكر ، لم تحكها له ،كيف عرف ما لم تقله ، تراقبه وتحاول أن تفهم ، ترى شيئا حقيقيا يتشكل من علمه هذا ؟ لم يتبع البدايات الصحيحة ،فكيف وصل الى هذه النتيجة.

كانت غير راضية عن أسلوبه ولكن مأخوذة بالنتيجة ،ولا تستطيع تفسيرها ، حاولت التغلب على أفكارها وهواجسها ، جلست إلى جواره تتأمله ،شيء قوي يخرج من أصابعه ويؤثر ، لا تعرف اين تعلمه ، شيء لا تفهمه ولا تستطيع أن تنقله الى خبراتها لانه أكبر من الموهبة ..

أحست برهبة ، هجمت عليها أفكار ومشاعر لم تصدقها ،هل عاد؟؟ألم تكن تتمنى قبل ذلك أن ينجز نصف هذا؟ .

أطرقت ،انه يترك كل دروبها ويخلق قاعدته الخاصة ،لا فضل لها عليه .

يشحب وجهه ،يلتوى فمه فى ألم ، ينبسط فتظهر ابتسامة ، كأنه يرى ما لا تراه ويسمع مالا تسمعه . ينسج كلمات لم تتوقعها ولكنها صادقة وحقيقية .

أما سهر فكانت مشغولة بالنهر ، تبلل قدميها بمائه العذب ،تحكى للنهر ما تشاء وتشفق عليه ،كيف يتحمل قلبه ما يسمع .

تنحنى درة على حفيدها

" يكفى هذا ... فلتلعب "

لا يتحول عن النول ،كأنما استولت الشياطين على روحه ، وأمرته أن لا يتوقف مهما حدث . تحول أصابعه الخيوط الى شئ ساحر . تتطلع درة الى حيث يثبت عينيه ، ماذا كان يرى ؟ من يدرى ، تطفر من عينيها الدموع، لقد سحره كهف غرناطة وجعله شخصا آخر . تتأمل نوله ،ترى معجزة تتشكل ، يتملكها الخوف .

سهر لا تلحظ ما يدور على بعد خطوات منها،ولا تتوقع شيئا غير مألوف ، الذكريات تتدفق داخلها لتلقى بها فى النهر

"تسمعنى فمن يسمعك ؟"

يتغضن وجه درة ، تنظرالى شقيقتها ،كأنما تلتمس العون .حاولت الكلام ،الكلمات تراوغها وتختفى . نادتها ، خرج صوتها خافتا ،هزت سهر رأسها كأنها تسمع ،فواصلت درة كلامها بصعوبة ، ثم مشت حتى البغلة القريبة ، ركبتها ومضت .

بقيا وحدهما ،سهر تحدق فى موجات النهر وماء الذهب جالسا الى نوله ، ظلها من خلفها وظله الى جواره .

التقى الظلان وتهامسا ،رفع ماء الذهب رأسه عن النول لأول مرة منذ الصباح ،من يدخل خيالاته ويحركها ويدهشه ؟

شحب دقائق ثم واصل العمل .

عادت درة وقت العصر وكان يصحبها شاب وسيم ، يحدثها فترد عليه بكلمة أولا ترد .

كان ماء الذهب مستلقيا فوق العشب و سهر تنظر يمينا ويسارا ، تتبع مجرى النهر ما بين البيازين والحمراء وتتطلع الى ضفته الأخرى .

اقتربت درة من حفيدها وربتت على رأسه ، فاشتكى

" نفذت الخيوط الحريرية يا جدتى ولم أنته من البساط بعد "

تأملت العمل الذى انجزه فى دهشة ،تمتم الشاب الذى يصحبها غير مصدق .

" الله ...الله ...الله "

أخرجت درة من كيس تحمله القطعة التى ورثوها من بهار كسرى ،مازالت مبهرة بها اللؤلؤ والجوهر وخيوطها تنساب فى سلاسة . لكنها بدت باهتة الى جوار ما ينسجه ماء الذهب . شيئا ما افتقدته ، كالحب ، الشغف ، الجنون .

فكت الخيوط على مهل وتمتمت

" بقيت قرون تتحدى بجمالها كل بساط نسجته عائلتنا "

أخذ حفيدها الخيوط بلهفة ، وواصل النسج تحت ضوء المشاعل .

كانت الظلال تتقافز حوله ، تهمس له ، وظل سهر يرقص ويغنى ، ينظر الى صاحبته ويقول

" متى تتعرف على ؟ متى ترى ؟ "

تلتفت درة الى مرافقها تسأله فيكرر بصوت خافت

أنا ابراهيم المصرى تاجر حرير من مصر

يتراقص ضوء المشاعل ، تنكمش الظلال وتنبسط . اكتمل البساط قبل بزوغ الفجر .

(٣)

ولد ابراهيم المصرى فى بيت كبير له عواميد رخامية ، زخارف منقوشة على الجدران ، نوافذ من زجاج ملون ،فهوابن محمد المصرى شيخ تجار القاهرة .

والده يملك حوانيت لا تعد فى الوراقين وسوق مرجوش والغورية وبولاق، وعدد من القوارب التى تجوب قبلى وبحرى ، وتعود الى القاهرة محملة بالبن الصمغ ، العاج ،العبيد والحبوب .

لا أحد يذكر شيخ التجار فى شبابه ،لا أحد يعرف سره ،ولكنه مازال يتذكر الليلة التى غيرته وقلبت كيانه .

كان مفلسا ،اكتوى بظلم المماليك كالعامة ، يصنع الأحذية ويبيعها، ويتسلى كالمفلسين بكلمات غاضبة ،وأحلام بأن يعيش يومه بلا جبابرة

وذات يوم تربص به أحد جنود المماليك ، اتهمه بأنه حاك الأحذية بشعر الخنزير المحرم ، وهدده أن يبلغ المحتسب .

اشتعلت معركة بالأيدى والسكاكين ،سقطا وقاما وسقطا .لا يعرف محمد كيف تغلب على غريمه ،لم يكن الأقوى ،جسده الضئيل بدا مثل علامة تعجب ، ولكن ظلال المقهورين كانت من حوله تدفعه حتى انتصر .

سلبه كيس مليئ بالقطع الفضية . لم يشعر أنه لص ،ولكن يداً تسترد بعض حقوق أمثاله المسلوبة .

هرول ، ابتعد ،ابتعد أكثر حتى اطمأن

جلس اسفل حائط وفض الكيس ،سيوزع ما به على من أرهقتهم الضرائب والإتاوات

ولكن ما ان لمس القطع المعدنية الباردة ،حتى استولت عليه مشاعر لم يتمكن من فهمها أوتسميتها ، مزيج من القلق والغبطة ،والذهول .

تغير ، لا يدرى كيف ،ولكنه أحس أنه تغيير عميق مس روحه .

فى البداية شعر أنه صار أقوى ويملك ، ثم ضاعت روحه وانتابه ضعف وأشفق على نفسه ،وعلى من كان ينعتهم فى السابق بالسادة الأغنياء .

كيس واحد من النقود لعب برأسه ،فما بال من يملك كيسين أوعشرة أكياس أوألف ألف كيس ،مساكين لا يرون ولا يسمعون رغما عنهم ، ليسوا سادة كما كان يظن ،ولكن عبيد المال وملك يمينه ، أسرى سطوته وسحره .

كانت أفكاره تدهشه فى البداية ، لكنه ألفها وصارت جزءا منه .

لقد تحول الى انسان آخر .

بات خائفا من لقاء معارفه القدامى ،كيف سيتعامل معهم والمسافة بينهم صارت بعيدة .

بحث عن مصير جديد بين أناس لا يعرفونه ، لم يأخذ من الماضى سوى شقيقه الطفل ، قرر تربيته وتلقينه خبرته وأفكاره الجديدة .

صار تاجرا جوالا بين الأقطار . كثرت أسفاره ، عرف بلاد العرب وأفريقيا ، واحتفظ بذكريات حلوة عن دارفور وسنار لم يفصح عنها .

أحيانا كانت تعود إليه نفسه ، فيكره الظلم ويقرر التحرر من عبودية المال ، ولكنه يتوغل أكثر فى عقد الصفقات التجارية وينسى .

اتسعت أعماله وكثر ماله وركنت روحه للدعة والمتع . أصبح أكثر حذرا وحرصا على الحياة . وضع يده فى يد أعداء الأمس ، وصاروا أخلاء وندماء .

صار يرتجف عند كل تغيير طفيف فى الأوضاع ، وخاصة بعد أن حضر مجالس السلطان الغورى وتعرف على ابن أخيه طومانباى ،ودعاه الى بيته فى الأزبكيه ،وشربا سويا القراقمز ،وشعر أن ما يربطهما هو سر تفهمه الروح ولا تستطيع تفسيره .

اندلعت الحرب بين المماليك والعثمانيين فى الشام قبل مولد ابنه ابراهيم بسنوات كثيرة ،أصابه الأرق والهلع وأخذ يتصيد الأخبار القادمة من حلب .

تأكدت الهزيمة ولم يتأكد موت الغورى ،سقط من فوق جواده ،واختفى جسده ، كأنه تحول فور سقوطه الى بخار ، انتظر محمد بفارغ الصبر معجزة ظهوره ،ولكن المماليك لم ينتظروا ،ولوا طومانباى أمر مصر لكن استبشر ، فصاحبه صار سلطانا ولا شك فى أن الأيام القادمة له. لكن الهزائم توالت .

أحاط به الخطر والضيق ،وشعر أن نهايته أوشكت ، تذكر أيام الصعلكة

والجوع وطريقه المليئ بالتعب والمراوغة ،سأل نفسه ألف سؤال ولم يجد اجابة واحدة.

بعث بأهله ،وجواريه وعبيده إلى بيت له فى قوص ، وبقى فى القاهرة متخفيا فى زى مراكبى فقير . كان يتسلى بالنظر للنجوم ولا يدرى الى متى يستمرخوفه وهروبه ، تطارده عيون أصحابه القدامى وتهمس له

" ماذا جنيت يا محمد ؟ كفرت بنا بسبب المال .. ماذا فعل المال لك الآن هل أعطاك الحب هل تشعر بالراحة "

يحاول أن يسكتهم بلا جدوى ، انهم داخله وسيظلون الى الأبد .

حاول أن يتصيد أخبار طومانای ، اكتشف أن أمره يعنيه أكثر مما تصور ، رآه ذات يوم وسط حشد من الجنود الانكشارية ، يطوفون به شوارع القاهرة كأسير ، يلوح للناس فيردون التحية . توقفوا به فجأة عند باب زويلة ليشنقوه .

لم يمت بسهولة ، ظل مبتسما حتى النهاية ، يكلم الناس ، يستمع الى

كلامهم فى شغف ودهشة ،كأنه اكتشف فى لحظاته الأخيرة شيئا جديدا ، لم يعرفه من قبل ،عن الحياة والناس . ارتفع جسده ثم هوى ،وسكت الى الأبد .

طارده هذا المشهد طويلا ، وذات مساء رآه بكامل هيئته يتنزه على شاطئ النيل، ناداه وعاتبه

" هل صدقت موتى يا محمد ؟

لم يتمكن من الرد ، انسابت دموع حقيقية من عينيه ،أراد أن يحتضنه فابتعد ،وهز رأسه

" لقد مت للأسف وليس لدى فرصة ثانية ولكنك مازلت تحيا فلا تستسلم"

، كانت التغيرات من حوله تحدث سريعا ،كثيرون فقدوا هيبتهم ، وآخرون رحلوا الى الصعيد ،قطعت رؤوس ومزقت أجساد . وانتشرت الشائعات والحكايات فأكد الناس أن أشباح الموتى ملأت الأزقة والميادين معلنة عن غضبها ،منتظرة لحظة الانتقام ،عندها قرر الغزاة الجدد التوقف عن القتل ،والعفو عن من تبقى من المماليك ،بل نصبوا أحدهم حاكما على القاهرة واستعانوا بآخرين ، ليس تملقا للارواح الشاردة فحسب ولكنهم أدركوا أن المماليك مثل الشوك الصغير ، المتوغل فى تربة مصر ، يسبب المتاعب ولا يمكن التخلص منه .

تهامس الناس

" وهل تغير شئ ؟

ما شأنه ؟ المهم أن تقضى مصالحه ، لقد كبر وجرب ولم يعد يقيم أموره بمكيال الحب والكره ، أنه مكيال صبيانى ، يؤدى إلى قرارات متهورة ومخاطر لا حصر لها، فهوتاجر ومصيره وازدهار أعماله مرهون برضا الحكام.

عاد مع أهله ومواليه إلى الأزبكية.

كان يبعث كل حين لممثل السلطان العثماني ولأمراء المماليك بما لذ وطاب من العطور والبخور والثياب.

لم يقلل هذا من تهافت الكبار على داره ،حتى لوتهامسوا فيما بينهم ، تالوا منافق، ماسح أجواخ السلطة ..

صار بيته قبلة للعلماء ، المشايخ ، الأعيان وكل ذى سلطان .

اما الناس الذين خالطهم منذ أمد ولعن منعهم الظلم ، فلم يعد لهم وجود فى حياته . صاروا ماضيه الذى يهرب منه وحين يطارده يردد

لا يهم، فلتبق الذكريات مادامت لا تضر

كان يمكن لابراهيم أن يتعلم دروس والده فى الحياة ، لوأنه لم يقض طفولته فى الطابق العلوى بين جوارى ونساء بارعات فى تحريك الخيال والقلوب ..

بينهن سمع وشوشات كثيرة عن عمه الذى سافر فى الطريق الخطر وحوله الطريق الى عظام ..

وهناك ضمته جارية عجوز ،لها عينان ضيقتان ووجه ذهبى .. وصفت له ملامح هذا العم ، ابتسامته ، لفتاته قالت :

ربيته ولكن خياله كان يفوق كل وصف ،ورغبته فى أن يمزق ستر الغيب لا رادع لها

تبكى ، تشعر أنها سبب ضياعه لأنها كلمته عن موطنها فى أقصى الشرق عند سور الصين العظيم .

كانت تلهوفى الرمال بالقرب من جبل الألف بوذا حين مرت قافلة فى الطريق وأسرتها . صارت جارية ولكنها فى بلدها تذكر أنها كانت اميرة.

كانت تحفظ مقاطع من كتاب ماسة السوترا وتعرف سر دودة القز التى تفرز الحرير ، مازالت تؤمن أن الحرير سر مقدس لم يعرف به العالم بعد ولم تصدق الشائعات التى تقول إن راهبان استطاعا تهريب بيض

دودة القز وبذور التوت فى عصا مجوف ،وأن إحدى الأميرات وضعت البيض والبذور بين جدائلها وسافرت إلى الخارج وأفشت السر .

كثيرون حاولوا ذلك وتم اكتشافهم و قتلوا ، لا يمكن لأحد أن ينجح، إنه طريق مسدود تحميه أرواح الأسلاف .

لا يهم أن تصدق ، مادام يسعدها أن تفكر فى الحرير كسر ، لا يعرفه سوى القليل من المختارين .

تلتفت الى ابراهيم وتهمس

"عمك صدق قصتى وقال لا تحزنى ، سأذهب الى بلاد الألف بوذا وأفتش عن ذويك ،أنا أصدق أنك اميرة ، نظراتك ومشيتك ولمسة أصابعك تؤكد ذلك ، لوأنك أصغر قليلا لوقعت فى غرامك وتزوجتك وأخرصت الألسنة التى تلاحقنى وتقول لماذا لا تتزوج . كيف أتزوج بعد أن استمعت إلى حكاياتك وأدركت ضآلة ما أعرف ، ماذا سأقول لأبنائى وأى شئ سأعلمهم ، لقد تركت الزواج والانجاب لأخى ،أما أنا فسأركب الخيال حتى أصل إلى أماكن وناس وحكايات لم يعرفها أحد قبلى ، سأقايض كل ثروتى بالمعرفة .

كان ابراهيم يستمع إليها ، تسرى داخله رعشة ، يشعر أن كلماتها تخترقه وتمتزج به، فيتضاءل أمام عينيه كل نجاحات أبيه ،ويشعر بقوة خفية تدفعه فى طريق عمه .

كبر ابراهيم وأراد السفر ، لم يمانع أبوه ،ولكنه حذره

" سافر كما تشاء ولكن استمع للخطر ولا تعاند "

حكى له عن عمه

" سافرت أنا وأخى الصغير ذات مرة ، أخى الذى علمته بنفسى ودربته على خبايا مهنة التجارة ومسالكها الصعبة . كانت له أفكاره الغامضة التى لا أعرف كيف تسللت إليه ، افترقنا عند مدينة البتراء ، عدت بتجارتى

وواصل طريقه إلى المجهول ، واختفى الى الأبد ، لابد أنه مات ،حاولت تحذيره فلم يستمع ،انظر أين هووأين انا ، لقد حققت المجد والثراء ،أما عناده فلم ينفعه وتركه مجرد ذكرى لمن يعتبر

يسأله

" حزين عليه "

يهرب من الاجابة ويكرر

" سافر يا ابراهيم ولكن لا تعاند "

حلم ابراهيم بالسفر ولكن رحلته الأولى لم تتم .

لم ينم ليلتها ، أراد أن يودع القاهرة ، سار فى أزقتها الضيقة ،تأمل القوارب فوق بركة الأزبكية ،وأضواء المنازل ، تطلع الى النجوم ، سيكون حريصا أثناء رحلته على تعلم لغة النجوم ، يريد أن يفك شفرتها ذات يوم ، كما يفعل مرشدى القوافل فى الصحراء والبحارة فى قلب البحر .

كانت الأغانى تناديه

" يا ابراهيم اقترب ولا تخف "

يمضى ويتلمس مصدرها .

سار فى طريق لم يألفه ، مر به السقاؤون ،اهتزت قرب المياه يمينا ويسارا ، أحس بالظمأ ولكنه واصل السير . اشتد الزحام كأن أهل القاهرة أصابهم الأرق تلك الليلة وخرجوا إلى الشوارع ، ناداه المتسولون على جانبى الطريق ،ألقى إليهم بعض القطع الفضية ومضى ، استوقفه تاجر فى إحدى الزوايا وعانقه

" إلى أين ؟"

كان فى الخمسين ،ذولحية تخللتها الشعيرات البيضاء وعينان ضاحكتان

" هذه أول مرة تسافر يا ابراهيم ، كن قريبا دائما من القافلة ولا تغفل عنها "

كلمه عن السراب وأصوات الصحراء التى تنادى من تريد فيضل .

شعر بالرهبة والخطر ، استأذن وانصرف .

انحرف يمينا ، كان طريقا مقفرا ، سمع وقع أقدام وأصوات كثيرة تناديه .

" يا ابراهيم ....يا ابراهيم "

تبعها حتى أشرق الصباح ،كان منهكا

" أين أنا "

حاول أن يستكشف المكان ،هل هومرفأ بولاق ؟ شعر بدوار ،اختلطت الظلال بالناس ولمح قوارب راسية من بعيد ،همس لأحدهم ،فتجاوزه دون أن يرد ، أين هو؟ أظلمت الدنيا

حين أفاق تأكد أنه فى بولاق ،وأنه ابتعد كثيرا ولن يلحق بالقافلة ، شعر ببهجة خفية .

حلم طويلا بالسفر ، لكن ليس مع قافلة دجنها أبوه وصارت بلا خيال، كان يفكر فى مغامرة تشبه أحلامه .

سينصت فى المرة القادمة الى قلبه

●●●

استرسل التاجر الغرناطى فى التغنى بما لديه ،أمام الحانوت الذى استأجره فى أحد وكالات بولاق

" ضوء الشموع على الأرض كالنجوم فى السماء ، ستقولون تاجر شاطر يلعب بالكلمات ليبيع بضاعته ،كان يمكننى أن أبيع أشياء أخرى أكثر ربحا ، لكننى مفتون بالشموع وكل ما يخصها ، لدى شموع كبيرة وصغيرة ،خضراء

وصفراء وحمراء ، فى شكل برتقالة ، كمثرى ، سمكة ، غزالة ،جارية ،

مزمار لطيف ،شموع شرقية وغربية ، بعضها له عبير ،وأخرى تتوسد شمعدانات فضية وذهبية وبلورية "

كان ابراهيم المصرى من بين مستمعيه ، يتابع بشغف ظل امرأة تحرك داخل الحانوت .

قال الرجل

" كان لدى فى غرناطة حديقة بها ورد ، فل ،ياسمين ، فاكهة وأشجار من كل لون ، أرانب برية وغزالتين . كنت إذا حل المساء ،أشعل شمعة وأتنزه فى أنحائها ، لا شئ يشبه قضاء الليل فى الهواء على ضوء شمعة"

يميل ظل المرأة ويقترب ،يخفض ابراهيم رأسه فى خجل .

يكمل التاجر

" أنا قادم من غرناطة ، لقد تحولت من جنة إلى مكان مرعب ،كانت ذات يوم فى صفاء ضوء الشموع ، أنتم هنا فى القاهرة بعيدون عن الخوف "

تبادل الناس الابتسامات الساخرة من هذا الغريب الذى لا يعرف شيئا عن أحوال القاهرة ،أراد البعض أن يحكى عن الأهوال والحكايات المرعبة ، عن رجل يسكن القلعة ولا يراه أحد ويحكم باسم سلطان بعيد ،عن قسوة المماليك ،أرادوا أن يتكلموا عن الأسى الذى يسكنهم ، سكتوا لأنه غريب

أشار الغرناطى الى ابراهيم المصرى وقال

"تقدم أيها الشاب واختر لنفسك شمعة تشبه مزاجك و تناديك "

التفتت إليه الجموع وعلا الهمس ، شعر ابراهيم بالحرج ولم يتحرك ، تلجلج ثم قال

" سأشترى كل بضاعتك وسأدفع ما تشاء"

اهتز ظل المرأة داخل الحانوت ودنا .

●●●

كن جالسات فى البهو، يرخين الستائر .
أخبره أحد الخصيان
" لدى السيدات ضيفة "
هز ابراهيم رأسه ، كاد ينصرف ،سيؤجل زيارته لأمه وأخواته ، بقى حين سمع صوتا كالحرير من خلف الستائر ،كانت صاحبته تحكى .
" باع زوجى الشموع لهذا الغريب ،أغلق الحانوت وعدنا إلى البيت الذى استأجرناه ، ثم هجم عليه الغم والحزن ، قال وهويفض أكياس النقود التى قبضها ثمنا ،لوكان الأمر بيدى لما بعت الشموع ، لقد أتيت بها من بلخ فى أقصى العالم ، جمعتها من تجار يرطنون بألسنة مختلفة ،اخترتها واحدة واحدة وأنا أفكر فى حديقتى التى تركتها فى غرناطة ،قال لى راهب صحبنى فى القافلة حين جربها ، تلك الشموع مسحورة تعيد الأحلام والأفكار المنسية ، تجعل القلب يخفق ، لا تفرط فيها ولا تعطها الا لمن يستحق . كان يجب أن لا أضعف أمام عرض الفتى ،أن أقول له شموعى ليست للبيع ، فلست بحاجة إلى مال ، جنيت كثير منه فى غرناطة وضاعفته بعد أن تركناها وسكنا فاس، هل تذكرين بيتنا الجميل فى فاس وجيراننا الطيبون ،هربوا مثلنا من القشتاليين ، يسكت ،ثم يعود ليحكى ، سافرت بصحبة القوافل وانهمكت فى العمل ، حتى كان ذات يوم التقيت فيه بصاحبى الراهب الذى طاف العالم ،فقال لن تنسى غرناطة الا اذا ذهبت الى القاهرة ،تقولين ما عيب فاس ؟،لا عيب فيها ولكنه أكد لى أن القاهرة ستكون دواء روحياً ،فهى شئ آخر وحدائقها جنات .
إنها الأمل الباقى ، سأبتاع حديقة تطل على النيل ، تعوضنى عما ضاع ، لماذا تعجلت وبعت الشموع ،كنت فى حاجة إلى كل شمعة لأضيئها فى ليل حديقتى المستقبلية ولكنى ضعفت وأخذها قاهرى حديث السن، لن يعرف قيمتها "

أكملت المرأة

"قلت له استرد الشموع وأرجع المال لصاحبه ،فنهرنى وقال فى حدة ،لا لقد فعلت الصواب كان لابد من بيعها كى أنسى ،كلما أوقدت واحدة تتدفق الذكريات ، أسمع بلابل حديقتى القديمة وأشعر بالأسى وأن ما فات لا يمكن تعويضه ، يجب أن أغلق صفحة الماضى ، ختمت المرأة حكايتها بقولها لقد تعبت ولا أعرف كيف أريحه ."

انتظر ابراهيم قليلا ولكن الصوت لم يعد ، استدار ليمضى ولكن فتاة صغيرة اخترقت الستائر واكتشفت وجوده .

عاد الصوت الحريرى ينادى

" أين انت يا ليلى "

الأصوات تختلط وتقترب من الستائر ، توارى ابراهيم بسرعة فى إحدى الغرف ،

قالت ليلى لأمها التى أزاحت الستائر

" أمى سأقول لك شيئا "

حملتها الأم بين ذراعيها وقبلتها

" ماذا ؟"

ضحكت فى طفولة وتطلعت إلى الغرفة التى اختبأ فيها ابراهيم

" لن أقول ...لن أقول "

ابتسم ابراهيم رغما عنه ، لم يقصد التلصص على الضيفة ولكنه لمحها قلن .

" إلى اللقاء يا نور

فعرف اسمها .

●●●

صدحت الموسيقى فى طرقات القاهرة ،وتطلع المارون إلى الموكب ،انه

أحد الأمراء برتبة طبلخانة ، يتجه الى الأزبكية فى طريقه الى بيت شيخ التجار، هوواحد من بين أربع وعشرين أميرا يحملون تلك الرتبة فى بر مصر ، تصحبهم دقات الطبول والمزامير أينما ذهبوا ،لتأكيد المكانة .

تجمع الناس وتطلعوا إلى الأمير ، بزته الملونة البراقة ،فرسه الأشهب ذوالسرج الذهبى ، أتباعه من الفرسان الذين شقوا بسيوفهم الهواء ، عبيده الأقوياء المجلوبين من الحبشة . كانت رائحة البخور تفوح بقوة من الموكب فتلعب بالعقول . علا التهليل ، امتزج بصفير غامض راح يطلقه التاجر الغرناطى ،وهويتابع الموكب ويواصل طريقه . كان مدعوا الى مأدبة فى بيت شيخ التجار وأعجبه أن موكب الأمير سار الى جواره ،شعر للحظة أن الطبول تدق له دونه .

خاطب نفسه

" القاهرة مدينة الدهشة "

ردت إليه الموسيقى ذكريات عذبة عاشها فى غرناطة ،عن سيدة عجوز كانت تعزف فى بيتهم على الطنبور والعود والمزمار ، من أين أتت ؟ ما قصتها؟

لم يخبره أحد ،ولم تحك له . لم يسمعها أبدا تتكلم ،كبر ليجدها تواصل العزف دون توقف ،كأنما تنحت أبجدية من النغم . لم تعرف أن تغييرا حدث فى غرناطة ،وأن المقاطع التى تعزفها صارت محرمة .

وجودها لم يكن خافيا عليهم . كان القشتاليون يأتون إليها سرا، يستمعون إلى عزفها . فيرسخ داخلهم فى كل مرة أنها ساحرة ، ويعقدون العزم على إبلاغ محكمة التفتيش عنها لتحرق ،لم يفعلوا لأن العالم دون موسيقاها بدا خاويا . كانت تسحرهم ،وكانوا بحاجة إلى هذا السحر كى يفهموا أنفسهم ويحلقوا على أجنحة البهجة والألم .

ابتسم الغرناطى حين توقف الموكب أمام بيت شيخ التجار ، تقدم نحوالأمير مخترقا الفرسان ،العبيد ، البخور ، الأصوات ، الأيادى التى حاولت إيقافه .

صافحه وقال

" اسمى ابن عبيد تاجر غرناطى محب للحدائق والشموع "

لم يندهش الأمير من جرأته، لقد مر بلحظات صعبة ولم يعد شئ يدهشه، كانت المظاهر تحيط به ، دقات الطبول والمزامير تعلم القاصى والدانى بقدومه ، وأنه أحد رجال الولاية الجديدة البارزين ، ولكن كيف ينسى أنه مملوك طومانباى الأثير ، قاتل معه ورأى الأسى يرتسم على وجهه ثم فقد أثره ولم يتمكن من تتبعه فى رحلة اختفائه ،فبقى فى القاهرة ، ارتدى زى الحرافيش ، رأى الحرائق فى كل مكان ، صفوف الناس تمشى فى ذلة ، مربوطين بالحبال من الرقاب ،رأى طومانباى يشنق ،ويتحول إلى سراب ، ثم تبدل كل شئ وخرج كآخرين من المخابئ،ووجد نفسه أميرا برتبة طبلخانة ،رأى أقرانه ورفقاء دربه من المماليك يحكمون برتبة سنجق ، ويباركهم العثمانيون .

فهل هذا ينسيه الألم والخوف وافتقاده للأمان ،كان يشعر أن الموت على بعد خطوة منه ، وهذا ما جعله يتمرد أحيانا فيفعل ما يريد ويقول ما يشاء .

صافح محدثه دون حذر

" اسمى مراد ولكن لى اسم سرى كانوا ينادوننى فى الماضى بطومانباى الصغير

سكت الأمير المملوكي، راح يراجع نفسه ثم تمالك أعصابه ، قال لرفيقه وهويضحك

" الحياة لا أمان فيها ،سمعت بما يحدث فى غرناطة"

شقت كلماته صدر بن عبيد ، تطلع إلى عينيه ، فلم يرالأمير المملوكى وموكبه ،ولكن روح تحاول أن تبقى حية وتدارى وجعا ،كم يشبهه !

دخلا معا الى بيت شيخ التجار ، ظنهم الحاضرون اصدقاء منذ أمد .

أكل الجميع وشربوا ، وكان محمد المصرى يوزع نظراته الثاقبة التى لم تؤثر فيها السن على ضيوفه، قدم ابنه الوحيد ابراهيم الى الأعيان والعظماء وضيفه الغرناطى . اختلس ابن عبيد النظر إليه وهويقضم قطعة حلوى ، ما ان تذكره حتى شعر أن نارا تنطفئ داخله . أرضاه أنه باع شموعه لابن شيخ التجار .

رفعت الموائد وآن وقت السمر .

اقترب بن عبيد من ابراهيم وقال له

" لماذا لم تقل لى أنك بن شيخ التجار "

عرفه ابراهيم على الفور،فكر فى نور وصوتها الحريرى ،لم تخطر على باله منذ أن لمحها فى الحرملك إلا الآن ، حين وجد نفسه على بعد خطوة من زوجها ، تأمله بدقة وجهه المليح ، شعره المسترسل ، صوته الرخولى ، شعر بالغيرة تأكله

قال بن عبيد

" أستطيع أن أقرأ أفكارك "

بوغت ابراهيم بكلماته ، ارتبك ،كان وجه نور ، يظهر ويختفى داخله مثل حزمة ضوء .

استمر يقول

" أنت ككل الشباب يا ابراهيم ، تقول لنفسك أريد أن أستقل ،أن يحترمنى العالم لشخصى

ربط على كتفيه

" ولهذا ستنجح "

حل المساء فعزفت الموسيقى واشتعلت الشموع ، تعرف بن عبيد على شموعه بينها ، تابع احداها فذاب قلبه .

كان الأمير مراد يشرب القراقمز ويوزع النكات والقفشات هنا وهناك .

تلاقت أعينهما فحيى أحدهما الآخر .

ثم تحول الحديث فجأة إلى الأبسطة الحريرية ،حين أهدى مراد بساطاً مدهشاً إلى شيخ التجار .

تفحصه الحضور فى فرح وذهول وراحوا يتكلمون عن بهجة ألوانه ونعومة خيوطه ودقة صنعته .

اجتذب الحديث بن عبيد فنفض أحزانه برهة ، تأمل البساط ثم قال بصوت فاتر ، إنه بديع ولكن لدى واحدا أروع منه ،انه من غرناطة ، تكلم باقتضاب عن صانعة الأبسطة درة ،ولكن كلماته كانت كافية لتؤثر فى الحضور فيحلقوا بخيالهم إلى غرناطة حيث الخطر والجمال .

عارضه كثيرون من بينهم مراد وحاشيته وكاد يدب شرخ فى صداقتهم الوليدة ، فتمسك بن عبيد بما قاله واقترح على شيخ التجار أن يرسل لبيته القريب أحد الخصيان لاحضار البساط المهور بتوقيع درة

" سأكتب رسالة لزوجتى بذلك ، ".

نطق بهذه الكلمات ثم هزه الندم ، ماذا لو أراد شيخ التجار الاحتفاظ بالبساط ، إنه الأثر الوحيد الباقى لديه من وطنه ،ماذا لوفقده ؟ .

تنحنح محمد المصرى الذى تقوس ظهره بفعل السن ولم يفقد نقاء ذهنه ولا قوة شخصيته ،ولا سطوته التى جعلته يحتفظ بلقب شيخ التجار كل هذا الوقت ،

سأل وهم ينتظرون

" ما اسم الصانع .. هل قلت إنها امرأة "

أومأ بن عبيد ، حاول أن يدارى مخاوفه ويبتسم

" نعم .. نعم .. اسمها درة "

●●●

كيف انتهت تلك الليلة ؟ هل احتفظ بن عبيد بالبساط أم أهداه مضطرا إلى مضيفه ، لقد ظل هذا سرا . لكن اسم درة صار متداولا ومعروفا فى بيت شيخ التجار ،لأن البساط كان بالفعل أعجوبة . تهامست به بناته وزوجتيه ،وتنقل فى الحريم بين الخصيان والجوارى ،ووصل إلى الجارية العجوز ذات الوجه الذهبى القادمة من بلاد الألف بوذا ، فأكدت أن امرأة لا يمكنها أن تنسج وحدها بساط بهذا الوصف ، لابد أنها استعانت بربات الفنون التسع . سمعت عنهن فى طفولتها من غريب حل ببلادها بعد سفر طويل كاد يهلكه ، وقرر أن يمضى ما تبقى من حياته هناك .

كان يجمع الأطفال ويسليهم بحكايات مدهشة أتى بها من عالمه

يسترسل فى الحكى فتسأله

" ما اسم الربة الأولى "

يقول

" يوتوربى

" وماذا تفعل ؟"

" تعزف الناى "

تتوالى أسئلتها

" والثانية "

يفكر كأنه لا يعرف كيف يختار من بينهن ثم يقول

" تعجبنى ربة الرقص "

" ما اسمها ؟"

يسكت ويتفادى النظرإليها

" والأخريات ؟ ألم تقل أنهن تسع

" كلهن مدهشات "

" لماذا لا تحكى عنهن كما تكلمت عن يوتوربى

يصمت فتقول

" أريد أن تعلمنى كيف أتهجى أسماءهن "

يصمت .تلاحقه بالأسئلة ، فيراوغ ويعود لصمته

الآن فهمت لماذا حاول الإفلات ، كان صعب عليه أن يجد كلمات كافية لوصف يوتوربى وفنونها ،فما بال تسع ربات مدهشات .

ربما كانت قاسية لأنها طلبت منه أن يعلمها كل معارفه السابقة،ولم تترك له فرصة أن ينتقى ما يروقه من عالمه القديم. هل كان يريد أن ينسى ربة التاريخ مثلا ،لأنها تذكره بجذوره وتؤكد أن حقيقته هناك حيث ولد ، أما هروبه ورغبته فى أن يبدأ حياة جديدة بلا ماض ، لا معنى لها .

كانت الجارية ذات الوجه الذهبى مفتونة بفكرة الربات التسع الملهمات وتصدقها ،

قالت لابراهيم حين زارها

" درة التى يتكلمون عنها ،موهوبة بمساعدة ربات الفنون ،حتى دون أن تنتبه ،ودون أن تفهم كيف يتسللن إليها ويؤثرن فيها ، فقط اسألها اذا التقيت بها يوما ، كيف تدهش الآخرين بصنعتها ، وسترد عليك بابتسامة بلهاء .

إنها لا تعرف إلاّ قشور الحقيقة ، أما كيف تنفذ بلمساتها على النول إلى الأعماق فسر

لم تكف عن الوسوسة له حتى سافر إلى غرناطة ذات يوم ، ليلتقى بدرة .

هل كان ذلك بتحريض منها . لا شك فى أنها غرست الفكرة ولكن أمورا أخرى أنبتتها

●●●

اليوم هوالجمعة ، سيصلون كالعادة فى الجامع الأزهر ، تهامسوا ، أشاروا إلى نقطة بعيدة ، حاول شيخ التجار وولده ابراهيم وعدد من الوجهاء الاقتراب منها قدر المستطاع ، لأنها المكان الذى سيصلى فيه الوالى .

وقف بن عبيد فى الصفوف الأولى بجوار الأمير مراد .

الكل يخفض رأسه فى خشوع ، يردد الآيات ، يركع ، يسجد خلف الامام .

وحده بن عبيد كان مرتبكا ، يختلط لديه الركوع بالسجود ، يتعثر لسانه كلما ردد آية .

كان قلبه يدق بعنف ، أحيانا ينسى آداب الصلاة ، فيلتفت يمينا ويسارا فى خوف .كأنهم هناك يراقبونه بعيون خفية ويهددونه بالحرق .

ولد فى غرناطة بعد سنوات من سقوطها،ولد فى زمن الرهبة ، لقنه أبوه خطوات الصلاة فى سرية وحذره " لا تجهر بها "

عاش طوال عمره يمارس حقوقه فى الظلام ، أمر صعب أن يتصرف بطريقة أخرى بعد أن ترك غرناطة .

يلتفت كلما تكلم ، يخفض صوته اذا كانت الكلمة عربية

نبهته نور أكثر من مرة

" لماذا ؟ لا أحد يراقبنا "

ولكنه لم يألف الحرية ولم يتخل عن حذره، لم يصدق أن مصيره صار

بيديه ، ظلت نظرات غامضة تلاحقه ، ترهبه ،وتكبله . قضى أغلب عمره يكتم أفكاره، يروض أفعاله لتناسب قوانين الأسبان ، فكيف يتبدل الآن، ترك غرناطة ولكنها لم تتركه ،ظل سرداب وهمى من الشكوك والمخاوف يحيط به ، لم تخلصه البراهين والمستجدات من عتمته وبرودته .

تسأله نور

" لماذا ؟"

يحاول أن ينطق كلمة تعكس شعوره بالأمان وتطمئنها ،ولكنه يسكت مندهشا ، كأنه لا يصدق معجزة الحرية .

يسلم الامام فيسلم جميع من حوله ،أما هوفيظل ساهما ، لا يذكر إن كان قد ختم الصلاة ولا كيف ختمها .

تصطدم عيناه بالعواميد الشاهقة والجدران العتيقة يفكر

" ترى من كان يجلس فى مكانه قبل مائة عام ؟كم مائة عام أخرى سيبقاها الأزهر ؟ "

تنسل روحه ، تحلق حرة فى جنبات الجامع ، تسبح الله فى خفوت تعيد التسابيح على مهل ، حاول أن يجاريها بلسانه ولم يستطع ، قال أبوه

" تعلم أن تدفن الكلمات داخلك "

ترك غرناطة منذ خمسة أعوام ، هل هذا يكفى ليتحرر ، ليعبد الله بطريقته دون خوف من رقابة أوتربص. انه أمر شاق أن يقتلع الرهبة المزروعة داخله ، كان يهرب من أفكاره ويراوغها، كى لا يعترف بحقيقة انه خائف وسيظل .

اصطحبه مراد إلى الخارج ، ثم انشغل عنه بتوزيع الصدقات على أمواج المتسولين المتدفقة من الأزقة المحيطة بالأزهر .

كان بن عبيد يتأمل ما حوله كالمذهول ،كأنه ضل طريقه ،لمح ابراهيم ، تلاقت نظراتهما ، هئ اليه أنه يخترق قفطانه بعينيه ،تمنى أن يقترب ،ولكن ابراهيم أدار وجهه وابتعد سريعا .

لم يهتم بن عبيد ،واتاه شعور أنه لم يغادر غرناطة بعد ،وأن ما يحدث حوله حلم .

استدار إليه مراد

" قلت انك تبحث عن حديقة تنسيك حدائق غرناطة ، لدى واحدة واذا أعجبتك فهى لك "

نظر اليه فى عدم فهم ،وفجأة همس صوت داخله

" أنا حر"

ازداد ارتباكه ،وبدا كأنما يقاوم قوة مهولة ، أراد أن يقول

" وأنا أيضا " لكن كيف ؟ .

ترك مراد يقوده ،وعلى بعد خطوات تحركت الجوقة التى تصحبه ، دقت الطبول والمزامير ، أفسح المارة الطريق .

●●●

دخل بن عبيد من بوابة ضخمة ، وجد نفسه فى حديقة غناء تعانق النيل. تجول بين ورودها وفواكهها واستمع إلى زقزقة طيورها ، وأحس أنه شاعر أوفيلسوف ، التفت الى مراد وقال :

لا أدرى يا أمير كيف يتحول البشر إلى وحوش ،يدخلون الدنيا بضحكات هشة ونظرات بريئة ،ثم تتمكن أفكار غامضة منهم ، تسمم نفوسهم ، وتحولهم إلى قتلة ،هل تذكر طفولتك يا أمير

يرجع مراد برأسه للوراء ،ويرى نفسه طفلا ،أصوات مبهمة تحيط به ، ضباب يمنع عنه الرؤيا ، حضن دافئ لا يذكر صاحبته ،وشاطئ نهر كهذا

حاول أن يعرف اسمه من الكتب ، ثم تراجع عن الفكرة ، فالذكريات العذبة تشعره بالضعف،والضعف لا يليق بفارس مثله ، هكذا تعلم فى الطباق ، الذى التحق به فور قدومه الى مصر ،مع غيره من المماليك للتدرب على الفنون الحربية .

القوة والتنافس صارا هاجسه وقضيا على رقته وهشاشته .

فتنته الخيول منذ اللحظة الأولى ،ألوانها ، رشاقتها ، شعوره بالزهو والخفة والقوة كلما امتطاها .

رسخ داخله أن ألوانها لها معنى ، علامة تشير الى قدره ،تخير لون الفرس وفق اليوم ، فالسبت يركب الأ دهم ، والأحد يهيم بالأبيض ،والاثنين للأخضر والثلاثاء للكميت والأربعاء للأبلج والخميس للأشقر والجمعة للمحجل .

كان يثق بخيوله ،ويترك لها العنان فى أحيان كثيرة ،فتقوده الى أماكن بهيجة .

إنها عائلته الحقيقية .

يسأل بن عبيد ترتسم داخل مراد علامة استفهام كبيرة ، فيتراجع ويعتذر

" لم أقصد تذكيرك بألم ،سأقول لك ما قاله راهب التقيت به فى سفرى الأخير ، إنه من روما ، يتكلم العربية والفارسية ،ويقرأ الكتب والناس . قال لى : إنه هارب من محكمة تفتيش نصبت له هناك ،لأنه جهر بآرائه وطالب الناس الذين يحضرون عظاته أن لا يخافوا ، ويحرروا عقولهم من الشوائب ، التى تحول بينهم وبين الوصول للرب ، لكنه عجز أمام فساد الكنيسة ، فتخلى عن رهبانيته .

وذهب الى البندقية . البندقية شئ آخر ،ولكنه شعر بالرهبة ، فلم يكن

بعيدا جدا عن روما ،قرر الابتعاد قدر ما يستطيع كى تهدأ روحه . قال لى، أخبرك بألى كى لا يقتلنى "

قطب مراد وفكر

رفيقه الجديد لا يعرف شيئا عن حياته ، لقد تربى على أفكار صارمة، الموت عنده أهون من البوح "

قال بن عبيد

" لست بهذه الصرامة التى تظهرها يا أمير ،والا لماذا دعوتنى ، ألم تقل إنك تتمنى أن تعوضنى بتلك الحديقة عما فقدت فى غرناطة ، أنت انسان ، وشعرت بى "

أدار مراد وجهه وفكر

" حتى لوتكلم ،سيكون هذا أمام أفراسه ، لا يثق بغيرها ، الأدهم رأى دموعه التى سالت لسبب لم يعد يذكره ، هدهده وواساه ،والأبيض أنقذه من الموت فى إحدى المعارك ، والأبلج والأخضر والكميت والمحجل ، شاركوه لحظاته الحلوة والصعبة ،انهم عائلته "

قال بن عبيد

" اسمه ديمترى ،أعنى صديقى الراهب، كان ديمترى كمرآتى ، لم يكن يواسينى ،ولكن يرينى الحقائق التى حاولت تجاهلها ، كلمنى عن اشبيلية ذات مرة وسألنى ماذا تعرف عنها ،قلت سقطت قبل غرناطة بزمن طويل ، فحكى عن صديق له يدعى توريجيانوا ، قال انه نحات تنقل بين البلدان ، مكث قليلا فى فلورنسا ، انتقل الى لندن ليذهل الجميع ببراعته ،ثم قصد اشبيلية المدينة التى نادت روحه ،وهناك تدفقت موهبته وتنقل من حلم إلى حلم ، حتى طلبوا منه ذات يوم أن ينحت تمثالا للعذراء ، فنحته كعادته بقلبه وحواسه . بدا حقيقيا أكثر مما تصور ،هيئ له ذات يوم أنه يكلمه ،

شعر بالرعب والفزع ،وانتابته لحظة جنون فحطمه ،فماذا قالوا عنه ؟ جشع، غضب من أجل المال ، لم ترضه أكياس النقود الكثيرة ثمنا للتمثال . اذا أردت أن تشوه فنانا فقل عنه هذا الكلام . كان فنانا حقيقيا ،لا يمكن أن يدمر فنه بسبب المال . اقتادوه الى محكمة التفتيش لأنه تجرأ وحطم تمثال العذراء ، يقولون سجن أومات سيان ،ما فائدة الحياة دون روح ، لقد سرقوا روحه .قال لى ديمترى لا أدرى لماذا حكيت لك هذا ،ماذا أردت أن أقول ؟ لا تحزن ؟ لقد قابلت فى غرناطة عقولاً عمياء ولكن هذه العقول فى كل مكان ،كأن هذا هوزمنها . لا تحزن "

أكمل بن عبيد قصته وهويتأمل فراشة حلقت واقتربت منه

" ذكرتنى قصته يا أمير باشبيلية حاصرها القشتاليون تسعة أشهر، هل كان ديمترى يعرف أن الغرناطيين ساعدوا فى سقوطها وأن أمير غرناطة قاتل إلى جوار القشتاليين ، تمنيت أن لا يعرف ،أن يبتلع الزمن هذه الواقعة ويخفيها ، لماذا كلمنى عن اشبيلية اذن ؟ هل هى مصادفة ؟ ، أنا من غرناطة ، وأتعذب لألف سبب ،أشعر بما شعر به أهل اشبيلية منذ سنوات بعيدة جدا ، وهم يخرجون منها تاركين أحلامهم وبيوتهم وحدائقهم ،ماذا كان شعور الغرناطيين وقتها ، هل تنهدوا وابتهجوا، وظنوا أنهم بعيدون عن الخطر

كان مراد يستمع إليه وهويداعب فرسه الأشهب ،أراد أن يغير دفة الحديث فقال

"هل أعجبتك الحديقة "

" انها حلم "

" هنيئا لك "

رد بن عبيد فى رهبة

" لا .....لا ....."

ثم تلعثم واعتذر

" أعنى انها تحفة ، ولكنى قررت العودة الى غرناطة "

" لم تمكث طويلا "

"....."

" لماذا ؟ "

قال بن عبيد

" القاهرة لا مثيل لها ، يهئ لك للوهلة الأولى أنها مدينة الشقاء ،فعيون أهلها متعبة ، يفتشون عن أنفسهم فلا يجدوها ، يحلمون بحياة خالية من الظلم .

أما اذا استمعت الى ضحكاتهم وكلامهم ، يتبدل كل شئ ، وتتأكد أنهم يسكنون مدينة مسحورة ، تبتلع الأحزان فى بساطة ،تتجمل وتبتسم رغم النوائب ،الضحك والأسى جنبا إلى جنب فى أزقتها ،ميادينها ، بيوتها ، حوانيتها ، حدائقها . القاهرة تخيفنى وتنسينى كما قال ديمترى كل المدن حتى غرناطة . عمل ديمترى مترجما لدى شيخ التجار ،نحوعام ، ثم قرر العودة إلى البندقية قال لى لوبقيت فى القاهرة فلن أتذكر مدينة دونها، واذا نسيت البندقية ، فلن أتعرف على نفسى ،كتب لى خطاب توصية الى شيخ التجار ،ملأه بعبارات مبهجة " بن عبيد أهل للثقة " " بن عبيد رجل من ذهب " ،أخذته شاكرا ، كنت مصرا على المجئ ، لم أفهمه وقتها . كنت لا أصدق أن هناك مدينة بهذه القوة ، تأخذك من نفسك ،وتبدل ذكرياتك ، تعطيك تاريخا جديدا . تركته ليواصل طريقه الى البندقية . كان ديمترى مرآتى ، سأعود إلى غرناطة ، لأننى مثله لا أريد النسيان ، القاهرة

أشعرتنى أننى ولدت من جديد ،وهوأمر مدهش ، معجزة حقيقية ،ولكنها فوق احتمالى ، حياتى كانت صعبة ولكنها جزء منى . هل تفهمنى ؟ .

●●●

سافر ابراهيم المصرى إلى غرناطة والتقى بدرة ، لم تكن هذه وجهته فى البداية ، كانت البندقية ،هى المدينة التى فكر فيها أولا ، من يدرى لماذا!

بالطبع هناك حكايات دميترى الذى عمل عند والده مترجما ، لم يكن واثقا من وجود الراهب السابق فى البندقية ، ربما مازال يتنقل بين البلدان ويحلم بها ،شعر بالأسى من أجله ولكل صاحب حلم ضائع .

كان يبدو متوترا كأنما اشتعلت روحه بذكرى ما ، كان يفكر فى نور، ماذا يعنى هذا ؟ هل تعرف بها وتحدث إليها ؟

القواعد صارمة فى القاهرة ،وعالما الرجال والنساء منفصلان ، ولكن هذا لا يعنى أنهما لم يلتقيا ابدا ،ولم يتبادلا بعض الكلمات أوأكثر قليلا ، ولكن الأمور لم تتطور ، فقد سافرت مع زوجها الى غرناطة ،وابراهيم فكر فى الذهاب الى البندقية بدلا من أن يتبعها . نور ليست له ولا تريد أن تكون .

دار حوار قاس بينه وبين نفسه

" لماذا اذن غامرت واخترقت التقاليد "

ردت نفسه ضاحكة

" أى تقاليد ، من يدرى كيف هن نساء غرناطة "

حذر نفسه بقسوة

" لن أسمح لك "

حاول الهروب من أصوات متنافرة داخله ،وأسئلة لانهائية ، انهمك فى اعداد تفاصيل رحلته .

لم يعطه أبوه نصائح ، اكتفى بابتسامة خاطفة ، تغضن وجهه ،وبانت بصمات الزمن عليه . شعر ابراهيم بانقباض ، لقد كبر أبوه وصار عجوزا جدا .

تعجب لأن هذا حدث فجأة ، تحايل شيخ التجار على الزمن طويلا ،

ولكن لا فائدة الآن ، ثقلت عليه السنوات والذكريات ، فاستسلم دون مقدمات .

سأله ابراهيم

" هل تذكر مترجمك ديمترى ، سأبحث عنه ، هل تريد أن تبلغه رسالة ؟"

حدق أبوه فى الفراغ ، عادت قوته لحظات ، جاهد كى يقول كلمة ولكنه اخطأ

ونطق بأخرى.

سألته الجارية ذات الوجه الذهبى

" لماذا البندقية ؟ اذهب إلى غرناطة ، التقى بدرة ،وأعقد معها صفقة ، قل لها خذى المال وأعطنى أبسطتك الجميلة "

ليته يستطيع ، هذا مستحيل ، اخترقته بعينيها الضيقتين، دفنت وجهها بين كفيها

" خسارة "

تركها ،ولكن غرناطة كانت تخطر له كل بضع دقائق ، قاوم ،ملأ رأسه بحكايات ديمترى ،كى لا يفكر فى مدينة أخرى سوى البندقية ،حكايات مدهشة تشبه الحلم ، أحيانا لا تخلومن الحزن ولكنها ظلت مدهشة

قال له آخر مرة

" تسألنى لماذا أتمنى العودة ؟لم أولد فى البندقية ،ولكنها المدينة التى تناسب ذوقى ،الحضن الكبير الذى ضمنى وأنسانى قسوة روما ،المنفذ لأفكارى الحرة ، انها مدينة متزوجة من البحر ، لا يهم اسم البحر ، ماذا سيفيدك اذا عرفت انه البحر الادرياوى ،أوأى بحر آخر ؟ السر فى المدينة . أهلها يحتفلون كل عام بهذه المناسبة ، القوارب تملأ القنوات ، مزينة بالأعلام والورود ، الموسيقى تصدح ،الكل يغنى ، البندقية مدينة متعطشة

للحياة ، لا تناسب زهد راهب ،ولكنى كنت مصرا على مجاراتها ، كان الخوف يمنعنى من الاستمتاع ، لم أنس ما حدث معى فى روما ، انه مثل طعنة انغرزت فى أعماقى ،أفقدتنى التوازن والثقة ،وفجرت أسئلة لانهائية، لماذا حاكمونى ؟ ما هوخطئى ؟ أردت أن يسلك الناس طريقا أنقى الى الرب ، لماذا لم يدافع الرب عنى ؟ وفى لحظة خفت على البندقية من نفسى ، أن يشوه حزنى الهائل بهجتها ،فتركتها ،وندمت .الندم هومصير كل من يتركها ، هذا هووقت رجوعى ،عدنى يا ابراهيم أنك ستزورنى يوما هناك ،سأكون بانتظارك "

عاد للجارية ذات الوجه الذهبى بعد عدة أيام ،طلب منها أن تعيد ما قالته، وحين انتهت ، قال

" معك حق ،البندقية مدينة ساحرة ولكن اذا لم التق بدرة وأعقد صفقة معها ستكون خسارة "

●●●

عادت نور الى القاهرة ومعها ابنتها ليلى تاركة زوجها فى غرناطة ،حلتا ضيفتان فى بيت شيخ التجار . هذا لا يعنى أن ابراهيم عرف بوجودها منذ الوهلة الأولى ، لكن مؤكد أنها وجدت طريقة لتلتقى به ،ودار بينهما حديث طويل ، ثم اتخذ قراره وغير مسار رحلته

لم يخبر أحد بتغيير مسار الرحلة ، سوى الجارية ذات الوجه الذهبى، ووعدته أن تكتم السر .

(٤)

بللت سهر قدميها بماء نهر حدرة وفكرت فى بدرو، عيناه العسليتين ، خصلات شعره السوداء ، سمرته ، صوته وهويقول

" ليس لدى اسم سرى ، أنا بدرو ،ماذا ظننت ،أن أقول اسمى محمد أوأحمد أومصطفى "

لم يكن بحاجة الى اسم عربى ليتذكر جذوره العربية المسلمة ، التقى طوال حياته بكثيرين فى غرناطة وخارجها ، يحتفظون باسم عربى جنبا الى جنب مع الاسم القشتالى ، يكتمونه ويتنادون به فى سرية ، ولهذا يقلقهم ويشعرهم أنهم ضعفاء ، مهددون طوال الوقت .

يلجأون اليه ، يعد لهم أعشاباً مهدئة ،يشكرونه ويثرثرون

ذات مرة ،سأل بدروأحدهم

" ماذا لوأن اسمك العربى غير موجود ؟"

أطرق الرجل ثم نظر إليه مفزوعا ، يعرف أنه اسم لا ينطق الا خلف الأبواب الموصدة ،ورغم هذا شغل حيزا كبيرا فى حياته ،واختفائه معناه فراغ

وضياع .

لم يعد يناقش الأمر ،ولكن قوة أكبر منه جعلته يفتح قلبه لسهر ، بعد أن فحص أباها ،وداواه ،ليبدءا حديثا ممتدا ،أخرجها عن صمتها الاختيارى .

ضحكت من القلب ، أبهجها تذكر هذا المشهد ،كان ملكا لها بكل تفاصيله ،فلم تكن درة هناك على غير عادتها ، لتمارس هوايتها فى النقد ، والشفقة والسخرية من كل خطوة تخطوها ، من كل فكرة أوابتسامة تراودها

كانت تتحول فى وجودها إلى انسانة عاجزة ،ضئيلة ، ولا يتسلط عليها سوى هاجس وحيد ينعى سوء حظها ، مسكينة ، لن تكون أبدا مثل درة ،حقا هما توأمتان ، ولدتا فى ساعة واحدة ،ولكن القدر تجاهلها ولم يمنحها شيئا ومنح درة كل شئ .ولكن درة لم تكن موجودة ،ليس فى هذا المشهد فقط ولكن فى كل مشاهدها مع بدرو، اختفت ، تبخرت ...؟. لم تلحظ ذلك وقتها كما تلحظه الآن

قالت له

"اسمى سهر...أبدلوه بماريا ولكنى لا أهتم "

" الأسماء ماذا تعنى ؟ هل تعكس نوايانا ! ماذا لوكنت محمد؟ هل سيعصمنى هذا ، فلا أكذب وأراوغ وأغش

تحدثا فى مواضيع شتى ،كلمته عن الكتب التى رأتها تحترق فى الميدان الكبير منذ سنوات ،علق :

"وهل نحن بلا ذنب ؟ نقول: القشتاليون أحرقوا كتبنا فهل صناها؟ "

حكى لها

" قادنى أحد مرضاى ذات مرة إلى قبوملئ بالكتب ،مررنا أمام صفوف منها مذهبة ،مزينة بكتابات ونقوش ، تأملها باعجاب وقال لى

" أليست قيمة"

شعرت أنه يغرز شوكة فى عقلى ،واجهته

" أنت لم تقرأها "

نظر إلى فى تعجب

" كيف عرفت "

ألا تدرى ؟ "

كنت أشعر بأنفاس الكتب من حولى ،كأنها كائنات لها روح وتتألم .

رد بصوت مرتبك

لم يقرأها أحد حتى الآن ، نحن خائفون "

التقيت بأخرين مثله، يبتهجون اذا أخفوا كتابا عربيا ،فهذا معناه أنهم قادرون على التحدى والمقاومة ، وأن هويتهم آمنة ،ولم تسقط كغرناطة ، ولكن ما الذى أسقط غرناطة ؟ .

أنصتت ،شعرت بألم غامض حين توقف عن الكلام .

●●●

قال لها ذات يوم

" أعرف ما تخفين "

كان يتكلم بجدية ، انتابتها رهبة ، ثم اطمأنت ، انه طبيب غرناطة الأمين ولن يفشى أسرارها ، خبير الآلام ،وسيرفق بألمها . يقصده فقراء القشتاليون ويلجأ إليه نبلاؤهم فى الحالات المستعصية ، فيداوى الجميع بحب ويهمس

" لونتذكر أننا بشر "

تكلموا عن رحمته ونبوغه، لم يعجب هذا الأطباء القشتاليون ،فطاردوه بالمكائد .

فى إحدى المرات دفعوا إليه بصعلوك ، ادعى أن علبة سقطت من ملابسه ، فتحها قبل أن ينطق بكلمة ،كان داخلها مصحف صغير وهلال ، هدده

" والآن أعطنى الدويقات والا أبلغت عنك "

رد بدروبنظرات حادة ، ارتعد الرجل وحاول الفرار .

ثم لانت نظراته ورثى لحاله ، ملابسه الرثة ، وحاجته الشديدة ، التى أصابت روحه بالعطب ودفعته لاختلاق الافتراءات .

أعطاه الدويقات وقال

" أعتن بنفسك "

●●●

كان وجوده مثل حلم ، لقد حرر روحها . شعرت معه بتناغم بين الأرض.

والسماء وأنها ذرة طافية دون خوف فى ملكوت الله .

يقول

" أنت مدهشة "

يتدفق الدم إلى وجنتيها ، فيشجعها كى تكمل حكايتها ، تقول :

"عبرت الميدان الكبير وحدى ،كنت صغيرة ورأيت الكتب تحترق "

تناوله ورقة أنقذتها من الحريق ، يقرأ الكلمات فيتوهج وجهه

تقول

"منذ أن قرأت هذه الصفحة وأنا أفكر فى الكتاب الذى انتزعت منه ".

تشتعل روحه ويبدوأن ذكريات تداهمه

لا تشغلى نفسك بكتاب ، قد لا تعثرى عليه أبدا ، لا تضيعى الوقت ، هذه الصفحة تكفى ، فكرى فيها جيدا ، دعيها تقودك "

تبلل قدميها بماء النهر ،وتتمتم

" كيف ؟ "

●●●

اختفى الطبيب بدروذات يوم وانتشرت الشائعات ، هناك من قال إنه عقد تحالفا مع الشيطان وتبعه إلى الجانب الآخر من العالم ، واستقر فى الأرض المسحورة التى اكتشفها كولومبس .

روج لهذا الكلام الأطباء القشتاليون ، الذين شعروا بالضآلة والعجز أمام معجزاته الطبية .

ورغم هذا انتظر مرضاه من القشتاليين والغرناطيين ، أمام داره كل يوم على أمل أن يعود ،ولكنهم تغيروا منذ اختفائه ، تفجرت الكراهية بينهم وتبادلوا الاتهامات ، وشعروا بالهوة الكبيرة التى تفصلهم .

كانوا فى السابق ينسون العداوة بمجرد أن يعبروا عتبة بيته ، يتبادلون الابتسامات التى يزرعها فى وجوههم وقلوبهم ، واثقا أن البشر لابد أن يفيقوا ذات يوم ، ويمدوا الجسور بينهم ، بدلا من تدميرها .

باختفائه تلاشى السحر ، وتذكروا أنهم أعداء .

كان جرح زبائنه من الغرناطيين عميق ، استعادوا ذكرى سقوط غرناطة ، أثقل عليهم الشعور بالذل والاستسلام ،وأنهم مضطرون أن يحفروا حياة سرية داخل وطنهم .

أما زبائنه من القشتاليين ، فتملكهم الارتياب ، فيما كان يردده بدرو،أن جميع البشر أخوة ، واعتبروا الغرناطيين اعداء للمسيح والكنيسة ، وصاروا يتمنون التخلص منهم كى تصفى غرناطة للرب .

●●●

نظرت سهر فى مياه النهر ،تأملت وجهها ، صارت عجوزا، أما داخلها فظل كما هو، طفولة ونزق وأسئلة لانهائية .

كاناً ذات يوم بعيد شابين يقفان فى المكان ذاته ،ابتعد بدروقليلا ، فرأته متوهجا تحت أشعة الشمس ،أنفه شامخا ، عيناه لا يطفئها بريق النهار .

سألته عن أبيها

"هل سيشفى "

لمحت أرنبا بريا يمرق وطيور ملونة تحلق .

هز كتفيه ،رد بسؤال

" منذ متى وهوينسج حكايات سرية "

" منذ وعيت "

" وهذه الحكاية ؟"

" لا أدرى "

أراه أبيها أبسطته فى اليوم السابق ، اكتشف بنفسه لعبة الحروف والكلمات

والحكايات السرية . توقف عند أحد الأبسطة ، دار فى أنحاء القاعة ،ثم عاد إليه ،وبندن الحكاية المنسوجة بين فراشاته وورده .

سأل فرد أبوها

" هى حكاية عربية "

ضحك بدرو وقال

" أعرفها أعرفها ،انها لابن طفيل ، أنت فنان "

تمالك أبوها نفسه

" هل ستفشى السر؟ "

●●●

غرق بدرو فى أفكاره ، تغيرت ملامحه ،فرأت سهر انكسارا ، غربة ، وألما يحاول مداراته ، اختفى شموخه وايمانه بالبشر ، وصدق للحظة أن الدنيا خلقت لتكون غابة كبيرة .

أفاق ، وجدها إلى جواره على ضفاف النهر ، تأملها ، ضاقت عيناه ،كأنه يتحقق من شئ . شعرت بالفزع ، هل اكتشف أنها امرأة لا تؤمن بنفسها، وأنها نسخة مكررة من آلاف النساء ، حاولت الابتسام ولم تتمكن، لقد اكتشف حقيقتها لا محالة .

قال

" أنت مدهشة "

ولكن كأن صوته تغير ، كأنه يتشبث بالأوهام التى خلعها عليها ،أنت مدهشة معناها ، لم أكن مخطئ ،أنت كما رأيتك من قبل ، لم تتغيرى ،ولا يهم أننى اكتشفت حقيقتك ، فلن أعترف بذلك .

تجرأت وسألته فأجاب

" كنت أفكر فى بن طفيل وقصته ،ماذا ظننت ؟"

تقول القصة : أبطالى ثلاثة ،جزيرة مهجورة ،طفل رضيع وظبية .

خـرج الطفل من باطن الأرض أوألقت به الأمـواج فـوق الجـزيرة المهجورة.

سمعت الظبية بكاءه ،فهرعت إليه ،أرضعته ،واعتبرته كوليدها .

كبر وصار مدهشا ، لم يكن يعرف كلام البشر ،ولكنه تعلم لغة الكون ، وانفتحت له أسراره ،فاطلع على مباهج الروح والعقل .

أراد ادراك المزيد من الأسرار ، فاعتزل داخل مغارة ،وصام أربعين يوما.

نزل الجزيرة ناسك ورع اسمه أبسال . التقى به ،وجده لا يتكلم ، تواصلا رغم ذلك ، شعرا ببهجة يعجز عن وصفها الكلام . تعلم من الناسك لغة البشر ،عرف الكثير عن العالم والناس والكتب ،ووجد الناسك عنده الحقيقة النقية ، شجعه كى يترك الجزيرة ، ويطلع الناس على ما عنده . قصدا سويا حاكم جزيرة مجاورة ، رحب بهما ،وطلب من رفيق أبسال أمام حشد من أهل جزيرته ،أن يطلعهم على معارفه ، فلم ينجح فى الشرح، وشعركأنه ينقش فوق الماء ،ووجد أنه يحتاج إلى لغة كلغة الأديان ليؤثر فى أهل الجزيرة . أعلن فى النهاية أن معارفة الخاصة عصية على العامة ، أوصى مستمعيه باتباع ما يقوله دينهم .

عاد مع أبسال إلى الجزيرة المهجورة ، اعتزلا الناس هناك ،ونعما بملذات العقل والروح .

سألته سهر

" هل كان له اسم "

قال

" حى بن يقظان "

●●●

" هل أنت حقيقة أم خيال ؟"

فرك بدروعينيه ، لم يصدق ما يراه ، كان حى بن يقظان متجسدا أمامه ، مثلما فكر فيه ، فارعا ، عيناه تبرقان كجوهرتين ، يمد جسورا غيرمرئية بينه

وبين المجهول .

ربت حى بن يقظان على كتفيه

" ماذا يهم ، ألم تفكر فى ، وتتمنى أن تسير على دربى ؟"

سأله بدرو

" هل هذا ممكن ؟ "

توهجت عيناه

" ولكنه ليس بالأمر السهل ، هل أنت واثق مما تريد ؟"

أومأ بدرودون تفكير فأشار اليه

" هيا اذن ...من هنا "

تبعه وجد نفسه يعبر ميدان باب الرملة، البيازين، الحمراء، البشرات . سار فى أزقة ودروب لم يكن يعرف بوجودها ، انفتحت أمامه غرناطة ، تسللت.

حكاياتها اليه من خلف الأبواب وأذهلته .

سأله حى بن يقظان

" بماذا تشعر "؟

كان متعبا ولكن لذة خفية تملكته

" هل أنت مستعد أن تتخلى عما تحب ؟ "

دار السؤال داخله .

كان يظن أن احتياجاته قليلة ،ولكن السؤال فجر رغباته الحارة ، صار يشتهى أشياء عديدة وبعيدة ،تمنى سهر حين مرت فى مخيلته ، توالت الأمنيات وتجاوزت الألف أمنية .

عرجا على نهر حدرة ، مشى حى بن يقظان فوق الماء ،وأشار إليه كى يتبعه .

قال بدروبصوت متعب

" لا أستطيع "

" هيا "

" لوفعلت سأغرق "

هيا "

لم يكن يجيد العوم ، ظل يخبط بذراعيه حتى ابتلعه النهر ، انه يغرق. حاول الصعود ، فانزلق أكثر إلى الأعماق .

ناداه حى بن يقظان

" جرب "

"كيف ؟"

"حاول "

جرب بدرووحاول ، إنه أمر شاق ، صعد وانزلق ، شعر بالتعب وخاطب نفسه .

" لا أستطيع "

وفجأة تفجرت داخله قوة مهولة،عندئذ توالت المفاجآت ، تمكن من الصعود ،طفا على وجه الماء ، ضرب بذراعيه وقدميه فانساب مثل سمكة .

تدافعت كلماته الفرحة

نجحت ،لا أصدق ، يمكننى أن أفعل أى شئ وأحقق ما أريد "

حاول الوقوف والسير

ضحك حى بن يقظان

" تقدم ولا تخف "

لم يكن السير فوق الماء سهلا ،ولكنه لم يعد مستحيلا .

مشى بطيئا .

وصلته الهمسات من خلف الأبواب ،ومن الأزقة والشوارع .

قال محبوه

لديه كرامات "

وقال من يكرهونه

" حليف الشيطان "

ابتسم لنفسه

" هذه هى غرناطة التى أعرفها "

واصل السير ، عبر إلى اليابسة ، انفرجت أمامه الطرق ، اختار أحدها.

لم يكن وحده ،كان يرافقه آلاف ، تطلعوا مثله الى حى بن يقظان .

كان يخاطبهم بطرق مختلفة ،ويرونه فى صور مختلفة .

فمنهم من يراه قصيرا ،ومنهم من يراه بدينا وجمع يؤكد أنه فاتن وآخرون لا يلتفتون إلى هيئته ،ويقولون

" هوالضوء "

كان القيظ شديدا، وأغراض السائرين متفاوتة ، ومواصلة الطريق أمر صعب .

امتزجت الروائح ، المسك بالعرق ، التراب بالدموع ،روائح كالنرجس والبراز والكافور، والخمر ،والحريق ، والفاكهة .

شعر بدروبالتوهان ، لولا أن حى بن يقظان كان يشير إليه باستمرار

" تقدم ... هيا "

كان صوته مرة كخرير نهر ومرة كضربات عود ، وأخرى كالناقوس ، ولكنه كان يتعرف عليه بسهولة ،ويقول لنفسه

" الزحام شديد ولكنه يخاطبنى ويخصنى أنا ...أنا "

يهتز يقينه فى أوقات كثيرة حين يرى الآخرين يظنون مثله أنه يخاطبهم، ويخصهم هم ..هم ، وأنهم الأجدر بمرافقته .

●●●

" كان هذا فى الماضى ،أما الآن ؟؟؟ "

سقطت من عينى سهر دمعة . يراقبها ظلها ،ويقول لباقى الظلال التى تحلقت حول ماء الذهب

" ليست عجوزا كما تبدو،هى فى الحقيقة طفلة "

اهتزت الظلال يمينا ويسارا ، انبسطت وانقبضت ،وتحولت الى صور وكلمات ،ورآها ماء الذهب هذه المرة ،كأحلام يقظة ،وراح ينقل ما تحكيه فوق بساطه .

همست سهر للنهر ،وراقبها ظلها فى أسى ،وقال للظلال

" كان قلبها يقفز فرحا ،كان قادرا على الحب "

حكى لهم عن بدرو،ونقلت الظلال ما قاله إلى ماء الذهب ،فظهرت قصة حى بن يقظان فوق بساطه ،ولكنه عدل فيها ،وسجلها وفق رؤيته ، بلغة سيطلقون عليها الخميادو بعد قرون ،حين يتمكنون من فك شفرتها ،وكانت الكلمات قشتالية والحروف عربية ، نسج ما يلى

" ترك حى بن يقظان جزيرته المهجورة بصحبة الناسك أبسال ،وذهبا سويا إلى الجزيرة المجاورة ، طلب منه حاكمها أن يروى لشعبه معارفه ، لم يكن يدرك أن حى بن يقظان كان مبهورا بضحكات الناس ،ومرحهم ، وقدرتهم على التغزل فى الزهور والنجوم والنساء ،وحياتهم المليئة بالأحداث والذكريات .

اختلط بهم ،وجرب العيش بطريقتهم ،فشعر بوطأة قدره وصارت وحدته عبئا ،استمع إلى آلامهم ،وحسدهم عليها ، فلم يجد أقسى من ألم الوحدة مهما تنوعت الآلام واشتدت ، تفجرت داخله حسرة على مرور حياته دون متعة الثرثرة . لم يفلح فى شرح معارفه للناس ،لأنه اعتبر وجودهم فى حياته مفاجأة حلوة . طلب منهم أن لا يتغيروا ،ويظلوا كما هم .

●●●

كان لقاؤهما الأول مكرسا للانطباعات لا الملامح . وجدها ابراهيم المصرى امرأة لها حضور الشمس ، صلابة الصخور ، رقة الورود ، عصف الريح ،نظراتها سكين ، وكلماتها بلسم .

أما درة اكتشفت مرحه ، قبل أن تتعرف عليه ، فقط من خطوته وابتسامته

والطريقة التى قدم بها نفسه "

" إبراهيم المصرى رهن إشارتك "

قصدا سويا نهر حدرة ،اكتشف ملامحها تدريجيا ، صدمته تقويسة ظهرها، وخصلاتها البيضاء ،لم يصدق أنها عجوز إلى هذا الحد .

أما هى فكانت مشغولة عنه بأفكارها ،والا لراعتها وسامته وتناسق بدنه.

وحيويته التى تشبه الشلال ،ولشعرت بمشاعر متضاربة ، ولحاولت أن تبدوأكثر شبابا ، كيف ؟ لا تدرى ولكنها دائما تنجح فى ذلك بمجرد أن تتخذ القرار .

اقتربا من النهر ،فترجلت عن البغلة ،وسارت نحوضفته بخطى سريعة، ومعها كيس حريرى منتفخ .

هى فى المقدمة وهو بعدها بخطوات .

قالت

" ها هما "

رأى ظلين ،وتطلع إليهما فى حيرة .

سبقها بخطوات ، تحول الظلان الى طفل جالس أمام نوله ،وامرأة تدير ظهرها .

أذهله البساط غير المكتمل الذى ينسجه الطفل .

أخرجت درة من كيسها القطعة المتبقية من بهار كسرى ، بساط بلاد فارس الشهير ، حكت قصتها مرة أخيرة وهى تفك العقد .

تمنى ابراهيم أن تتراجع وتبقيها كما هى ، ربما ذكرته بشئ بديع رآه فى طفولته ،أو تمنى أن تظل أبدا قطعة من الماضى اغتنمها العرب فى زمن المجد ، لها قدسية وغموض كل قديم ،وأن يكمل الطفل بساطه بخيوط جديدة .

كان ما فعله الطفل مذهل ، ويقترب من الكمال ، خشى أن يتوقف فجأة ويصرخ ، لا أستطيع أن أكمل بساطى بهذه الخيوط، أريد المستقبل وأنت تلقين على بالماضى ،وتقولين لى تقدم ، لا أستطيع، ابعديها عنى .

لكنه لم يفعل وابتهج بالخيوط العتيقة .

حل الظلام ، اشتعلت المشاعل ، تمايلت الظلال ،وواصل ماء الذهب النسج حتى اكتمل البساط .

(٥)

غرناطة عصية لم تفصح عن خباياها ، الأقنعة فوق الوجوه ، الخطوات وئيدة ، الملابس متشابهة ،حاول تخمين أيهم القشتالى وأيهم الغرناطى ولم يفلح .

قالت له درة

" آه يا ابراهيم ..آه ..جردونا من كل ما يميزنا ، ومن يدرى ماذا سيحدث غدا "

التقى بابن عبيد ذات صباح فى إحدى الساحات ، كان يتكلم مع جمع من الناس ويضحك. تجاهله وأكمل حديثه ، قهقه من حوله ،وصافحوه بحرارة ، ثم تركوه يمضى .

ناداه فلم يرد ،وأسرع فى خطوته .

" بن عبيد "

توقف هذه المرة وكلمه بوجه غير الذى ألفه ،بكلمات قشتالية غاضبة ،لم يميزمنها سوى "أنطونيو".

" ماذا ؟"

تلفت بن عبيد حوله ، ليتأكد أن لا أحد غيرهما فى الطريق ، همس بالعربية والشراسة بادية عليه

" اصمت وامض ، لست بن عبيد هنا ، اسمى أنطونيو، انس بن عبيد "

عرج على زقاق واختفى .

وقف ابراهيم حائرا ، ما الذى حدث للرجل ، لابد أنه جن ،ماذا سيقول لنور الآن ،كيف سينفذ وصيتها، ويقنع زوجها الذى تبرأ من اسمه بالرجوع إلى القاهرة .

باغته سؤالا

" تعيده إلى زوجته ؟ "

" ولم لا ؟"

" ألا تخشى الاجابة ؟ "

حاول أن يتجهم ، لكنه كان يقفز فرحا

" تكهنات ، أنا لا أحبها ، إنها متزوجة "

حاولت نفسه أن تجادله ، فأسكتها ، وحول تفكيره بسرعة إلى مبنى مهول ، بدا على مشارف نظره . أراد أن يستفسر عن اسمه وتاريخه ، ولكن ممن ؟

مر بعض ساكنى غرناطة أمام البناء المذهل فى صمت ، دون النظر إليه، كأنه بقايا جرح لم يندمل ، أوندبة تطل من الماضى وتؤلمهم ،ولهذا قرروا تجاهله .

مر البعض الآخر وأشاروا إليه ، تهامسوا ، هزوا رؤوسهم ، ماذا قالوا وأى أسرار تبادلوها ؟ لا يدرى .

مر رجلان، نظرا الى نقش فوق بابه الضخم ، ونظرا الى بعضهما فى تحد ، ثم سار كل فى طريقه دون كلمة .

تأمل النوافذ والأبراج والأبواب والسور مرة أخيرة ،وواصل طريقه .

شعر بالكآبة ،كأنه فى مأتم ،وفى لحظة تالية تغير مزاجه ، وملأت الصور الحية والبهيجة رأسه ، ومن بينها ضحكات ماء الذهب وطفولته وبساطه الملون ،فأسرع الخطى .

●●●

أكتشفت سهر البساط فجأة ،كان الوقت ليلا ، نسمات باردة تعبث بخصلاتها البيضاء ، النجوم تتراص فى السماء ، المشاعل تحيط بالنول وتعكس ألوانا لا تعد ، الظلال تهتز ،ونهر حدرة يغنى ، كان الآخرون حولها، ولم تعد تراهم بدوا كأشباح ، ثم تلاشوا .

استوقفها اسم بدرو المنسوج بخيوط زرقاء أعلاه ، هل يعرفه ماء الذهب ؟ كيف ؟ .

حكت له آلاف الخواطر غير المنمقة ، مزيجا من عبارات الكتب والحياة. تمكنت فى بعض الجمل من وضع الثلج الى جوار النار ، فلم يذب ولم تنطفئ . لم تطمع فى التنافس مع درة . كانت تعرف أن شقيقتها أكثر براعة فى اختيار الكلمات ، وجعل الأحداث مشوقة ومسلية . درة حكاءة بالسليقة ومدهشة ، أما هى فكانت تترك الكلمات على سجيتها كلما اقتحم ماء الذهب عزلتها ، فتعبر عن وجع ، فكرة شاردة ، بهجة طارئة . كان يستمع إليها ، يعجبه ما تقوله ، يتذمر أحيانا اذا سكتت .

رددت أمامه مئات الأسماء الحقيقية والمبتكرة ، لكنها لا تذكر أنها كلمته عن بدرو، فكيف التقط الاسم ؟

تراقص ظلها من حولها .

فكرت

" لقد اختفى منذ زمن بعيد ، دون وداع "

سقط ظلها فوق العشب الندى ،تكلم وتكلم ، لم تسمع سهر أية كلمة . حاول التسلل إلى خيالها فصدته ،اهتز فى أسى

" لا تنتظرى منى شيئا ، لن أخبرك بشئ "

سلمت بروعة البساط ،ألوانه ، ملمسه ، و الحروف المنسوجة به فى رقة وبراعة . تهجتها، ربطت حرفا بآخر ، استمرت حتى تكونت كلمة وجملة،

والتقطت الحكاية التالية :

اقترب حى بن يقظان من بدرووقال

" هل تعبت "

كان بدرو منهكا ، لمعت حبات العرق فوق جبينه ،ولكنه واصل السير فى اصرار ، البقاء فى غرناطة صار يشقيه

قال حى بن يقظان

" انظر كنا آلافاً ، صرنا مئات ، وبعد قليل سنكون عشرات ، ومن يدرى؟ "

نظر بدروحوله ، هناك من سقطوا من التعب ،وآخرون قرروا تغيير طريقهم ، وأطلقوا لرغباتهم العنان ، هناك من استظل بشجرة ، ومن تلذذ بأكل ثمرة ناضجة ،ومن وجد ضالته بين ذراعى فاتنة ، أوتجرع الخمر حتى ثمل ،

هناك من أخرجوا للسائرين ألسنتهم ،واعتبروهم مجموعة من البلهاء ، خدعتهم شخصية خارجة من بين دفتى كتاب ، لا تعرف شيئا عن الدنيا والبهجة الحقيقية ، أخذوا يصيحون فى غضب

" حى بن يقظان ماكر ، ولكننا اكتشفناه ،ولن نتبعه بعد الآن "

التفت حى بن يقظان إليهم ثم خاطب بدرو

" سأخبرك بسر ،كى تحسم أمرك وأنت على نور ، فربما كانوا محقين "

سكت لحظات ثم أكمل

" المكان الذى آخذك إليه ممل موحش ، لم يكن فى البداية كذلك ، كان وطنى ، ولكنه صار جحيما ، منذ أن اصطحبنى أبسال إلى الجزيرة المسكونة بالناس ،ووجدتنى أسبح فى نهر الحياة مثل باقى البشر ، فكر قليلا وستعرف لماذا أتيت اليك ودعوتك كى ترافقنى ،وذهبت الى آلاف غيرك ، الى كل من يعرف قصتى وفكر فيها ،كنت أريد أن أصحبهم الى جزيرتى، فدونهم كانت معرفتى ناقصة ، انكشف لى سر الكون ،و تجلى فيهم ، كل منهم بدا لى معجزة وطريقا يفضى إلى السر،ولكنى اصطحبتهم أيضا كى أشعر بالونس وأجعل حياتى محتملة ،هؤلاء الذين لم يكملوا الطريق ،اكتشفوا حيلتى ،وتراجعوا ، قالوا لأنفسهم ، لماذا نضحى بحياتنا التى نحب ؟ لنسرى عن حى بن يقظان ! لقد أعجبنا به فى السابق ،ولكنه يستحق الشفقة لا الإعجاب .

رفع حى بن يقظان وجهه ثم قال

" والآن القرار قرارك "

●●●

انسلت سهر فور عودتهم ، أضاءت شمعة فى الغرفة المعتمة،وأخرجت البساط من الصندوق .

الأصوات الصاخبة كانت تصلها من البهو، درة تحتفل بسلامة ماء الذهب ونجاته وتحقق نبوءتها ، ابراهيم يحكى عن كل جميل ومبهج تركه فى القاهرة ، العبدان يدندنان بأغنية ، لم يكن صوت الجارية واضحا ، خمنت أنها كعادتها قابعة فى ركن معتم ، مستسلمة للصخب والتوهان .

أدهشتها الحروف ،و ما تعكسه من معنى ،رغم التوائها أحيانا لتتوافق مع الزخارف، وفشلها فى قراءة بعضها.

كيف تمكن طفل من نسج هذه العبارات ، هل كان يفهم معناها ، أم أنها أتت إليه من دنيا الالهام البعيدة وهوفقط ينقلها دون فهم ، الأطفال لغز العالم وفرحته ، وأكثر قربا للحقائق ، تأتيهم من قنوات سرية .

كان ظلها يحاول أن يسمعها صوته ، يئس فقال للظلال المتهادية حوله

" . سأصمت ،عاقبونى اذا تكلمت

●●●

أطرق بدروقليلا ثم قال لحيى بن يقظان

" ماذا سيقولون عنى لو أتيت معك "

ارتفعت الأصوات تتساءل عن المصير المنتظر ، أحجم كثيرون حين لم يجدوا إجابة شافية وعادوا إلى حياواتهم السابقة ،وهم أكثر رضا . لقد جربوا ، ويمكنهم أن يقولوا وهم على أرض صلبه

" هذه حياتنا وتناسبنا "

اقتـرب من بدرو رجل حلوالمحيا ،شعيرات بيضاء تخللت لحيته ورأسه ، قال :

" وأنت من تكون ؟"

" بدروطبيب من غرناطة "

أشار إلى أخر واسع الخطى ، مربع الرأس

" هذا بن رشد طبيب أيضا وفيلسوف وفلكى إنه يقدس العقل، وأنا انحاز الى القلب وأراه الفيصل ،وأنت ؟"

ملأ السؤال الفضاء وتردد صداه ،وكانت الاجابة صعبة

" لا أدرى ،لا أستطيع أن أحسم الأمر

" أنا بن عربى ، هل سمعت بى ؟ "

دار الاسم فى عقله ، تذكر القليل ، أراد أن يعتذر عن جهله ،أن يقول إنه قادم من بلد تحرق فيه الكتب .

اخترق صوت بن عربى أفكاره وقال بود

لا تتردد "

" ليس أمامى طريق آخر وغرناطة لم تعد آمنة "

تساءل بن عربى

" هل تعنى أنك توافق لأن غرناطة لم تعد آمنة ؟"

ثم أطرق ومس لحيته بأصابعه

" أصدقك ،أنا مثلك أسير فى هذا الطريق لأن العالم لم يعد آمناً "

أشار إلى بن رشد وإلى عجوز جاوزت التسعين ،ووجوه امتزجت بضباب الطريق

" هم أيضا مثلنا "

ثم التفت إلى بدرووقال

" سأحكى لك قصة : فى يوم بعيد نظرت إلى السماء ،وبهرتنى النجوم، قلت النجوم بعيدة ،من أنا حتى تبادلنى الحب ؟ . سرت فى طريقى الصعب، تنقلت بين البلاد فى ترحال لانهائى ،من مرسية الى أشبيلية ، وقرطبة ومراكش ، تونس ، تلمسان ، فاس ، المرية ، الموصل ، القاهرة ، قونية ، دمشق ، توقفت فى مكة حاجا ، وهناك انكشف لى سر العشق ، فبعد ان انتهيت من مناسكى وتطهرت من ذنوبى ، قطعت طريقى فتاة وقالت

" ناديتنى واستجبت "

تذكرت الليالى التى قضيتها أحدق فى السماء وأتودد الى النجوم، فسألتها

" هل أنت نجمة ؟"

تدفق الدم الى وجنتيها، وقالت بصوت كضربات العود

" أسمانى أبى نظام "

قلت

" لابد أنك ملكة النجوم ، النجمة الكبرى ، ورفقت بحالى

كنا حرفان ،وصرنا حرفا واحدا ، وكلما تكلمت ،أشعر أن نفسى هى التى تتكلم ، تطايرت الهمسات من حولى

" الشيخ الأكبر أحب نظام

" إنا نراه فى ضلال "

ليس عندى ما أخفيه ،وما أخجل منه ، كان الحب من قبل طريقى ،وصار دينى ، ثم حذر ماذا ؟

تركتها ورحلت.

سأله بدروسؤالا ثم لام نفسه

●●●

شرد بن عبيد منذ الصباح ، ولا يدرى أى أفكار تمكنت منه وغيرته، أهوالخوف ؟ مما؟ ألا يستطيع أن ينسى هذا الجسد الذى رآه منذ أسابيع على ضفاف نهر شنيل ؟ الجسد ذوالوجه الشائه ، والعينان المفتوحتان كصرختين تحذران كل عابر .

كان وقتها يمد الخطى لعله يلحق بزوجته نور وابنته ليلى ، رحلتا دون كلمة ،سوى رقعة صغيرة دونت عليها زوجته عبارات بأصابع مرتعشة ،مازجة القشتالية بالعربية ، قائلة ، سنبتعد عن هذه الأرض ، لقد صارت أرض الموت .

ضحك ساعتها

" مغفلة ،ولكنها أرض الزهور والحدائق

قدر أنهما لم تبتعدا كثيرا وأنه سيلحق بهما ، سيقنع زوجته بالعودة ، ويجعلها ترى غرناطة بعينيه .مر فى طريقه بضفاف نهر شنيل ،ورأى الجسد الميت ،انقبض صدره ،وأبصر للحظات غرناطة بعينى زوجته ،ورغم أنه لم يعترف بصواب ما فعلت ،كف عن ملاحقتها.

انحنى على الميت

" وأنت ما اسمك ،وما هى حكايتك ؟ من قتلك ؟ "

ترددت أغنية غامضة جعلته يحاول أن يوقظ الميت مرات

هل هى أغنيتك "

سكتت الأغنية ، ازداد الجسد برودة ،ولكن بن عبيد لم يستطع أن ينسى الكلمات واللحن .

بقى طويلا لعله يسمعها مرة أخرى ،وقال فى النهاية

لا تحزن ، لم أكن أصدق ولكنها الحقيقة ، صارت غرناطة بلدة للموتى ، الآن فهمت سر زهورها المذهلة ، فهى تتغذى على الأرواح والدماء ، ولكنها تفتننى"

بكى

" ساعدنى يا رب ..ساعدنى يا رب كى أتحرر "

حكى حكايته وهو يواريه الثرى

" اسمى بن عبيد ، تاجر شموع ، عاشق للحدائق ...."

بقى بعض الوقت بعد دفنه لعل الأغنية تنبدن من باطن الأرض ،ولكن لا شئ الا الصمت .

مرت أيام ونسى ، أوهكذا ظن . اليوم فاجئته صورة الميت تطارده وتلوح له . حاول الهرب ،ولكنها لاحقته من درب إلى آخر .

كلمات لا تعد كانت تختنق وتموت على شفتيه ،وأخرى انطلقت بصوت عال ، سمعها المارة ،ولم يلتفتوا اليها .

واصل طريقه ،الأفكار تنسل من رأسه ، تظهر أمامه وتقوده .أفكار ملونة ،سوداء ،ورمادية .

يلتفت فى خوف ، بدأت الأفكار الملونة فى الرقص والغناء ،واصدار جلبة وبهجة لم يتعود عليها ، قالت له : أنا حقيقتك ،أنا أعماقك ، لا تقل مرة أخرى إنك لا تستحقنى ، لا تخف من الاقتراب منى ، أرجوك أعطنى فرصة ،وسأغنى لك حتى الصباح ،أغنية للحياة .

تحولت الأفكار الرمادية إلى علامات تعجب واستفهام ، شعرت بالخطر ، فلها لون مائع ، يمكن أن يضيع ويختفى فى أى وقت ، اذا تمكنت منه الألوان أواستسلم للسواد.

أما الأفكار السوداء فكانت تتحرك ببطء ، تتسلل الى روحه ،وكلما تلصصت على غرناطة تزداد قوة وتتيقن أن هذا هوزمنها ،والغلبة لها فى النهاية ، فلا مكان الآن للون يقف فى المنتصف كالرمادى ،ولا لألوان زاهية تريد أن تعود بالمدينة إلى زمن المجد .

هز بن عبيد رأسه ،لينفض كل الأفكار .

التقى به ابراهيم فى هذه اللحظة ، لقاء غير مدبر بن الصدفة ، لم يلحظه بن عبيد ومضي، فتتبعه إبراهيم فى صمت ،وهويستعيد لقاءه الأخير بنور ، العبارات التى قالتها وغيرت وجهة رحلته من البندقية الى غرناطة . هكذا ؟

ولكن ألم تكن رغبته الدفينة تتجه الى غرناطة ،حيث الخطر والمغامرة ؟

ألم ينصت بشغف للجارية ذات الوجه الذهبى حين نصحته بها ؟ وينكب على الكتب والخرائط ليحدد معالمها ، ويتخيل نفسه يتجول فى طرقاتها على غير هدى ، ويتمنى تأجيل الذهاب إلى البندقية ،أوالمرور بها سريعا بعدها يتجه الى غرناطة ويمكث فيها حتى يكتفى ، ثم ظهرت نور وتكلمت لتفتح فى نفسه بابا إلى ما يريد سيبحر مباشرة إلى غرناطة، ولكنه كان ينكر كل هذا كلما فكر فى بن عبيد أورآه كما يراه الآن . حينها يتلاشى كل شئ من ذاكرته وتبقى نور ، انه هنا بسبب نور ولا سبب آخر .

تأمل للمرة الألف جسد غريمه الفارع ، خطواته ، لفتاته ، لقد فقد الكثير من السحر ، كأنه رجل آخر . ولكن هذا لم يطفئ الغيرة فى قلبه ، شعر بنار حارقة تهجم عليه .

ظل بن عبيد يدور فى طرقات غرناطة ،حتى حل الليل ، ثم دخل حديقة غناء ، أشعل بعض الشموع ،واستلقى بين ورودها .

حين اقترب ابراهيم من مجلسه ، لم يفاجأ ، قال بنبرة عميقة

" ماذا تريد ؟ لماذا تتبعنى ؟"

تقدم ابراهيم منه فى ثقة وقال

" والآن هل يمكن أن نتكلم "

تحدث طويلا ، أبلغه رسالة نور الشفهية ، حاول أن يلتزم الحياد ، أضاف بعض التعديلات والتفاصيل من عنده ، لأن ذاكرته كانت تخونه أحيانا ،كما أن الكلمات المحبة من امرأة يريدها الى رجل آخر ولوكان زوجها كانت مثل خناجر صغيرة تنغرز فى قلبه وتوجعه .

استمع بن عبيد اليه حتى انتهى ثم قال فى حدة

والآن انصرف "

تراقص ضوء الشموع على وجهه الذى شحب .

كاد ابراهيم يذعن ويمضى ، لكنه توقف ذاهلا ، فقد حدث ما لم يتوقعه.

●●●

قال العبد الأول للعبد الثانى

هل تفكر فيه مثلى يا عدنان

جاءه صوت رفيقه متململا ،مثقلا بالنعاس

" ماذا تقصد

تتثاءب " ى ا ..... ه لا ل"

تنهد هلال وقال كأنه يحاول اقتناص الكلمات من نار داخله

" العود المنسوج فى منتصف بساط ماء الذهب ،كم يبدوحقيقيا "

غط رفيقه فى النوم .

بقى متيقظا ، يفكر فى العود ، تطارده نغماته مثل لعنة حلوة ، تبعث داخله بالأفكار الغامضة ،مثل هل تعرف وطنك البعيد ؟ كان لا يعرف عن وطنه سوى أنه ملئ بالغابات والسهول الخصبة ، تشقه الجداول والشلالات . قالت له أمه قبل

وفاتها ، إنه حفيد زعيم قبيلة افريقية مهولة . لولم يقع أبوه فى أسر العبودية ، لصار أميرا فى البلاد البعيدة .

تدندن داخله نغمات العود ، فيسأل نفسه ألف سؤال ، ويظل يفتش عن اجابات ،

لماذا تمكث فى قبوطوال النهار ؟ لماذا لا تهرب من هذه الأرض ؟ هل تخشى الأحلام ؟ هل يعجبك اسمك ؟

يبحث لنفسه عن اسم يليق بأمير أفريقى . أطلعته أمه على الحكاية ، وأسقطت الأسماء ،كان لا يعرف حتى أسم أبيه ، وفشل فى تخمين الأسماء التى يفضلها أمراء أفريقيا . ومع ذلك هناك العديد من الخيارات تتراقص فى مخيلته وتختفى وتفسح مكانا لخيارات جديدة ، لا يستطيع التفضيل بينها . يتشبث باسمه الحالى

سأبقى هلال ،واذا صرت أميرا ذات يوم ، فسينسى الناس أنه اسم عبد "

فجأة جلجل صوت درة ، أفاق وشعر باجهاد شديد ، كأنه قادم من سفر بعيد ، تساقطت منه لحظات الحرية والعظمة التى توهمها ،ودخل فى ثوب العبد

سريعا .

أيقظ رفيقة ، تأهبا سويا لأوامر السيدة العجوز .

فى وقت لاحق أطلع رفيقه على أفكاره . نظر إليه عدنان بعينين منطفئتين، ثم انفجر ضاحكا

" أمير أفريقى ؟ عدنى اذن أن أكون وزيرك الأول "

لم يضحك هلال ، نظر فى عينيه مباشرة

" لم لا ،هل تظن أن العبيد لم ينتموا أبدا إلى سلالات حرة، لقد فكرت طويلا ، لم أعد فى موقف الضعيف ، درة لا تستطيع أن تعلن أننى عبدها ، امتلاك أمثالها للعبيد جرم هذه الأيام ، لم تعد سيدتى ،ولكن امرأة أشفق عليها "

شعر عدنان بالحيرة ، بدا مترددا فى اختيار الكلمات

" الحرية ليست سهلة ، لا أعرف كيف أصير حرا"

قال هلال بعد صمت طويل

" أنا أيضا لا أعرف كيف أصير حرا ،ولكن هذا لا يعنى أن أظل عبدا "

تفادى عدنان النظر إليه وقال فى ارتباك

" دعنى أكمل عملى ، لقد أوشك الفجر على البزوغ "

●●●

هفت درة لزهور حديقتها وقررت أن تعد لنفسها باقة ،توقفت عند النرجس ، الحدقية ،القرنفل ، الريحان ، حاولت تجاهل الزنابق ، كيف ؟ ألوانها لا تعد، روائحها ناعمة ، لكنها ليست كما تبدوولا تمنح سرها بسهولة

" ماذا كان يقصد ؟"

جلست مرتبكة عند أول فرصة كأنها هاربة من شئ ، لا تريد أن تقر أن الزنابق تخيفها ، لا تجرؤ أن تخبر أحدا كم تؤلمها ، ستبدو عجوزا خرفة لمن يسمعها ، لا تقدر الرقة والجمال

توالت الأسئلة

" هل عشق حفيدها الزنابق مثل جده ؟"

" لم نسجها فوق بساطه ؟ "

تفجرت أسئلة أكثر بين هل ولم .

تذكرت زواجها القصير من تاجر بغدادى ، جعلته الزنابق يتخلى عن حياته المستقرة ،سافر إلى كل بلاد العالم ليبعها ويشتريها ويقايضها ، جلبت له هذه التجارة ثروة كبيرة .

توقف أخيرا فى غرناطة . نأى بنفسه عن صراعات المدينة ،وتغاضى القشتاليون عن تجاوزاته ، لأنه كان متخما بالذهب ،وسخيا .

كيف التقيا وتزوجا ؟ تخفى الاجابة فى صندوق الذكريات وتكتفى بابتسامة لكل من يسألها .

عرفها بأنواعها وأسمائها

" هذه الزنبقة تدعى نور الفردوس وهذه محبوب وتلك الباقة بها ثلاث، معززة المتعة ،زارعة الحب ،محسودة من الماس "

غرسا أبصالها فى هذا البستان ، وتعاونا على رعايتها ست سنوات حتى أزهرت وتحولت الى فتنة .

ست سنوات هوعمر زواجهما بعدها قرر الرحيل .

قال لها وهوينتقى أجود الأبصال وأندرها ويحزمها فى حرص ليحملها معه

" لا أخشى عليها ، الزنابق موطنها بعيد وصخرى فى جبال فى أقصى الشرق تسمى تيان شان ،جمال محاط بالقسوة ، لا تظنيها ضعيفة أبدا ، كونى مثلها ، دعينى أرحل دون ألم "

" هل ستعود إلى بغداد ؟"

كانت تعرف أن لديه زوجة وحياة هناك .

سكت ، ليته تكلم .

لم تمنعه ، عندما يقرر حبيب الرحيل فمن يمنعه ؟.

لم تسأله عن زوجته الأخرى ، تعرف أنه تزوج الرحيل ولن يذهب إلى بغداد ، سيبحث عن عالم جديد ،وأناس جدد ، ليكسر رتابة حياته .

اسمه آدم ،وهومثل أبى البشر ، لا يفضل بقعة على أخرى ، الأرض كلها وطنه.

أشفقت على الأخريات اللاتى التقاهن أوسوف يلتقيهن ثم يرحل ، تاركا وراءه جرح وذكرى .

لوتكلم بصدق ،لأكد لكل منهن أن حبه كان حقيقيا ،ولكن الحب كالزنابق، له بهجته وعمره .

كان رحيله قاس ،أصابها الأرق وانتابتها الهلاوس ،ولم تفلح معها وصفات بدروطبيب غرناطة الشهير ، كم تكره هذا البدرو، لن تنسى أنه حاول أن يقدم الأعذار لزوجها السابق قائلا

" الرحيل قدر

أخرسته حينها

" لا الرحيل قرار

تتذكر كلام آدم عن زنبقة بيضاء وتتأكد أنه فخ نصبه لها ،وسينصبه لكل امرأة تعجبه ،كل امرأة زنبقة أثيرة ومختلفة ،حتى يتبدد ضباب الحب .

كادت تقتلعها كلها من حديقتها لأن جمالها موجع ويذكرها بلحظات تمنت أن تدفن ،ولكنها كانت زهور ماكرة ، ما ان يكتمل بهاؤها حتى تنحنى فى خشوع معلنة ضعفها وخضوعها ،ليس لها ولكل عابر ،ولكن لله مبدعها .

أبقت عليها بسبب الخوف ، فما سمعته عنها غامض ، ولكنه كاف كى تتحاشى القضاء عليها . صدقت أنها نبتت من قطرات دم عاشق فارسى اسمه فرهد ،لابد أنه خلق من طينة غير طينة زوجها ، لم يسلم بأن الحب يتلاشى وينسى ، يشيخ ويموت كأى شئ ،فمزق جسده حزنا على حبيبته، خمنت أن روحه باتت حارسة لزنابق الأرض ، تحميها وتتوعد من يفكر فى النيل منها .

كانت ترهب الزنابق جميعها ، البيضاء ، الحمراء ،الصفراء ، القرمزية ، والملونة . ترعاها لتتفادى قوتها الخفية ،أليست تمائم ضد الخطر ،ألم يخبرها آدم بذلك ألم يقل إنهم ينسجونها فى بلاد العثمانيين فوق الملابس الداخلية للمحاربين ،وخوذاتهم ودروعهم لتحميهم .

لم تجرؤ أن تنسج زنبقة فوق أى من أبسطتها ، ولكن ماء الذهب فعلها، فماذا كان يقصد ؟ ماذا يعرف عن الزنابق ؟

●●●

" ريحانة .... ريحانة "

استيقظت أم ماء الذهب فى فزع ، من يبعث اسمها من العدم ؟

كادت تنسى أنها ريحانة ،عاشت سنوات كثيرة دون اسم ،حتى الرجل الذى أنجبت له ولدا لم ينادها بأى اسم .منذ أن تركها رضيت بحياة النكرة ، توارت فى الأردية الباهتة ، تفادت النظر فى المرايا،لأن غير ذلك كان يحزنها ،ويحول عينيها إلى بحيرتين .

من يناديها الآن ويتذكر اسمها ؟

كان ماء الذهب نائما على مقربة منها ، يحتضن بساطه ،قبلته ، جذبت البساط من بين ذراعيه ،ورغم الظلام هئ لها أن بؤبؤين يتحركان فى أنحائه.

كأنها عينا حبيب ؟ شعرت بطمأنينة ، تذكرته وتمتمت باسمه ، سمى آدم كأبيه ،واشتهر بلقب آدم الصغير ، تذكرت كلماته

" أنت جميلة ولكنى لا أستطيع أن أراك ، قلبى ملئ بالهموم "

تنصت إليه لعله يتفوه بما تتمناه فلا يفعل تتساءل

" والحب ؟ "

يتجاهلها ويواصل حديثه الغامض

" هل تعرفين أننا داخل لحظة مشتعلة ، لا أعرف كيف ستكتب بعد مائة عام ، هل سيقول الناس مساكين أهل غرناطة ،عاشوا بلا حقوق فى وطنهم ،كانوا جبناء واستسلموا ،أم قاوموا بشجاعة "

انتفض

" كلنا مسئولون ،أنا وأنت و أهل غرناطة "

تحاول أن تفهم كلامه الصعب ، تتوه فى صوته الرجولى وذراعيه القويتين،

يسترسل بعبارات كالغناء

" كانت هذه البلاد تسمى فاندوليسيا ، فتحها المسلمون ،ووقعوا فى غرامها، أسموها الأندلس ، ذكرتهم بالشام فى هوائها العليل ،واليمن فى استوائها، والهند فى عبيرها ، والصين فى جواهرها ، وأهواز فى ثرواتها ،وعدن فى سواحلها ،كانت قطعة من الجنة بين أيدينا "

تغير صوته ، وتكلم عن أحداث رهيبة ،أبطال وخونة ،معارك وفتن ،قال إنها حدثت منذ زمن بعيد ،وأضاعت كل شئ .

لا تجرؤ أن توقفه يسكت فتقول

" من أين تأتى بهذا الكلام يا سيدى "

" لا تقولى سيدى ، ناديني بآدم الصغير "

يخفت صوتها

" من أين تأتى بهذا الكلام يا ..."

" الكتب ،أخفى عددا منها "

كانت تتكلم العربية ولا تكتبها

" هل تعلمنى ؟"

" ربما اذا عادت غرناطة "

تتردد قليلا ثم تسأل

"هل تتكلم هذه الكتب عن الحب "

نتزع منه ابتسامة ،ويرق صوته

" لك ليلة واحدة ،وما تبقى من عمرى لغرناطة "

كادت تقول له ، لماذا هذه القسوة ، ألم تقل بلسانك أننى جميلة ، أمسكها بقوة فضاع الكلام ،وتحولت الى حزمة ضوء ،وأحست أنها تحلق

بعيدا ، ليلة هى كنزها المخبوء وذاكرتها وقطرة العسل فى بحر حياتها المر.

تركت ريحانة الغرفة على أطراف أصابعها ومعها البساط ،وصلت إلى الحديقة ، الفجر يشق طريقه إلى الوجود ، استطاعت أن ترى رسوماته فى وضوح .

العبدان ما زالا يعملان بين الأشجار ، يتوقف هلال عن العمل ويراقبها،

أليسا رفيقا طفولة ،اشترتهما درة فى اليوم نفسه ،دخلا هذا البيت متشابكى الأيدى ،وكلما تفجرت الدموع فى عينيها الزرقاوين كان يواسيها ويهمس لها بلغته الغريبة حتى تضحك ، تفاهما رغم حاجز اللغة ، مرت السنوات وتعلما العربية ،لكن حواجز أخرى صارت بينهما ، شقت بياضها الثلجى ،وقدها الفارع طريقا الى درة ،فوهبتها الى ابنها ، لعلها تداويه من مرض الحزن .

تتذكر ريحانة كلمات الرجل الذى صارت له

" الحزن لا علاج له الا بالحرية "

تتمتم

" والحب ما علاجه ؟"

يحكى ويحكى وفى النهاية يقول

" لا أملك سوى هذه الليلة "

تسيل دموعها فيرتجف قلب هلال الذى ترك الورود والأشجار واقترب منها

" لماذا تبكى ، ليتنى أعرف "

يراها تتأمل البساط فيفهم ،لقد سحرها وحرك روحها كما حدث معه .

تتجاوز ريحانة العود والزنابق ووجه ليلى ،وعدة وجوه لم تتعرف عليها ،

تتـوقف عند الظلال المنسوجـة فى الخلفيـة ، وهناك تطل عليـهـا عـينان حائرتان ، تذكرها باسمها وذكريات أخرى كادت تفقدها .

اقترب هلال أكثر ،لمحته ،ارتبكت ثم تماسكت بسرعة ، لم يعد يشبه الولد المدهش الذى زاملها فى طفولتها، صار مجرد عبد ، وبعدت المسافة بينه وبين نفسه ،أين هومن هذا الطفل الذى هون عليها مرارة المجهول ؟

أهانته نظراتها فابتعد .

عادت ريحانة تتأمل البساط فى شغف ،اكتشفت حياة تتدفق من العينين المنسوجتين فى الظلال ، وتعجبت كيف تتدفق الحياة من خيوط ميتة .

خاطبها صوت تسمعه دائما فى اللحظات الصعبة

" العينان داخلك ،أنت ترين نفسك "

●●●

غمر الفجر الكون ، ثلاثة ظلال ، كانت تنتظر سهر بين الزهور .

أحدها لحيى بن يقظان والآخران لبدرووبن عربى .

سأل حى بن يقظان

" هل رأيتها ؟"

أجاب بدرو

" لم تأت بعد "

" وتلك الجالسة هناك من تكون ؟"

" لا أدرى "

هز بن عربى ، رأسه كأن معلومات سرية وصلته .

توقف بدروعن الكلام فجأة وانتبهت حواسه

" ها هى

خطت سـهر فى ممرات الحديقة ، لم يفارقهـا النعـاس بعد ،راقبت مـا حولها فى كسل ، ما ان رأتها ريحانة حتى هرولت للداخل.

قال حى بن يقظان فى مرح

" هل أتيت بنا هنا ،من أجل تلك العجوز "

شعر بدروبالغضب

" عما تتكلم ،ألا ترى ؟"

تدخل بن عربى فى الوقت المناسب وقال لحى بن يقظان

" ربما أحببت الكون ،ولكنك لم تجرب حب امرأة"

هكذا بدت سهر فى عينى بدروالمحبة :شعرها سبائك فضة ،تجاعيدها نقش

حناء ، عيناها ليل ملئ بالسحر والغموض ،روحها شلال يخرق قوانين الجسد المتهالك .

بالطبع كان يرى عيوبها بوضوح ،ويتغاضى عنها ، انها متمردة ،خيالية ،تتملكها الكآبة احيانا ، كبرت أكثر مما تصور ،لكنه مازال يحب لفتاتها وصوتها فلم يغيرهما الزمن ،ويعشق تفكيرها فيه ، لقد فكرت فيه كثيرا فى الآونة الأخيرة ،وشجعته ليعبر حاجز المكان والزمان ليراها ،وتؤنس صورتها الجديدة عزلته .

اقترب منها ،فلم تشعر به ،كان مجرد ظل.

●●●

اختفى ابراهيم المصرى يومين كاملين ، ثم توجه إلى بيت درة ليخبرها بالنبأ

" مات بن عبيد .... قتل نفسه "

لم يبد عليها الانزعاج ،كأنه خبر متوقع ، فالمصائب فى غرناطة صارت هى القاعدة، تمتمت

" مسكين ، لم يرتح أبدا "

كان وجه ابراهيم لا يعكس شيئا ولكن داخله مشاعر متضاربة ،

يسترجع ما حدث دون انقطاع ويشعر بالذنب . غرز بن عبّيد الخنجر فى صدره ،ولم يحاول ايقافه ،أعمته كراهية غامضة ،تسربت بيها وملأت الفراغ ، كان بامكانه أن يوقفه ويربت على كتفيه ،أن يقول له حقيقة مشاعر نور ، فهى عاشقة له،

ولولا خوفها على ابنتهما ليلى ، لبقيت فى غرناطة رغم المخاطر ، رابطة مصيرها بمصيره .

استمر يومين على هذا الحال ،وحين هدأ ،انفجر فى البكاء ، ليس حزنا عليه ، بل على نفسه ، لقد تمكنت الكراهية منه وقتلت عنده أى شعور بالرحمة .

ولكن أليس له عذره ؟كل النعم التى تمناها كانت لدى غريمه،زوجة تشبه الينبوع ، طلة تجعل من حوله يتعلق به ، وحديث كالسحر ،ولكن فى اللحظة التى خطفه فيها الموت ، لم يشعر بالحسد ، تملكه الفزع ،رآه انسان مزقته أفكاره ،ومن الممكن أن يجد نفسه مكانه فى أى وقت .

أطلت عليه مشاعر صادمة ولكنها كانت صادقة وحقيقية ، فلم تكن المسألة أنه فكر فى نور وأرادها لنفسه ،ولهذا ترك زوجها يستسلم لشياطينه وينتحر ،ولكنه شعر بمتعة وهويرى أمامه كيانا ينتهى ويموت وتخضبه الدماء .

لقد أحب عذاب بن عبيد فى لحظاته الأخيرة ، اكتشف أنه لا يعرف نفسه، على الأقل فى تلك اللحظات ،كيف توحش الى حد الرغبة فى سحقه والتخلص منه .

سأل نفسه

" ماذا لوأن المنتحر شخص آخر ؟"

وهرب من الاجابة

قالت درة فجأة ،كأنما انتبهت إلى شئ

"ولكنه وحيد "

أفاق ابراهيم وفهم ما ترمى إليه ،كانت تريد أن تسأله ، وماذا بعد ، تركته وانصرفت ؟

سارا فى اتجاه بيت بن عبيد ، هئ لابراهيم أن ظلها يكبر ،ويمتد من خلفها ،أما ظله فكان ينكمش ويتضاءل ، كأن الظلال فى هذه اللحظة عكست الأرواح وليس الأبدان .

توقفا ،طلب منها أن تتقدم وحدها ،كان خائفا ، أن يكون شبح الميت بانتظاره لينتقم ليقول له ، قتلت نفسى كى أتخلص من نظراتك الكارهة لى ، أعرف أنك

طامع فى زوجتى ،ومن يدرى ما هوشعورها ؟

أتاه صوت درة يسأل

" أين ...أين ؟"

" هناك "

" لا أحد هناك "

فوجئ ابراهيم وشعر بالارتباك

" ماذا ؟"

كان واثقا من وجود جثته فى تلك البقعة ، بين الورد والرمان .

اقترب ليتأكد بنفسه ،كان المكان خاويا ،هناك بعض القطرات الحمراء .

دمه ؟ أم شراب الرمان الذى كان يحتسيه ؟

استعاد مشهد موته مرة بعد مرة فى خوف . هزت درة كتفيها فى استسلام

" ربما لم يكن وحيدا "

لا تعرف أمورا كثيرة عنه ،فقط ما حكته زوجته التى زارتها مرات ، قالت ، زوجى وحيد ،يشعر بغربة فى أى مكان ، انه مثل طفل ، يحتاجنى دائما إلى جواره .

نظرت إلى ابراهيم الذى كان يحاول استعادة حواسه ، قالت

"ربما قام أحدهم بدفنه "

رددت آيات قرآنيه وهبتها لروحه ،كان حزنها حقيقيا ،ومع ذلك استسلمت لعبير الورد والرمان

(٦)

انفجر الغضب فى قرى البشرات ،ولابد أنه سيمتد الى كل غرناطة ،نحن نحارب القشتاليين أخيرا ،المعارك كثيرة ،ونتيجتها لم تحسم بعد،وأحيانا يكون النصر حليفنا ، نحن شوكة نبتت فى أرض الوطن ،وصارت تؤرق أعداءنا ،هكذا كان يفكر أدم الصغير ،بعد أن تحامل على نفسه حتى وصل إلى فوهة الكهف . لم يعد يحتمل الرقاد فى الداخل تاركا ساحة القتال ،هذه المرة سينتصرون ويستعيدون ما ضاع .

الجروح كثيرة فى جسده ،ولكنه شعر برضا ، فهويقاتل من أجل الحرية.

لحق به بن أمية والحبقى وبن عبو قال بن أمية " القشتاليون فى مكان قريب " نظر اليه آدم الصغير وقال فى مرح " لا تقلق يا مولاى ".

ابتسم بن أمية عندما نطق كلمة مولاى ،كان يعرف أنه الملك الذى اختاره محاربوغرناطة ، ،ولكنه بن أمية لا أكثر بين أصدقائه ،وخاصة آدم الصغير فهوتوأم روحه .

بادله آدم الصغير الابتسامة وانتظر أن يقول شيئا ،فكلماته كالذهب ، ولكن الحبقى لم ينتظر

قال:

" لقد سقط كثير من رجالنا "

نظر إليهم نظرة ذات مغزى .

أكد آدم الصغير

" ولكننا لن نتراجع "

تململ الحبقى فى وقفته وقال

" أخشى الخسارة اذا تقدمنا خطوة أخرى ،لماذا لا نجرب المفاوضات "
قاطعه بن عبويصوت خشن
" لا مفاوضات مع قتلة ، أنسيت ما فعلوه ،كانت غرناطة ملجأ للجميع ،وبعد أن سقطت صارت الحياة جحيماً ، لست فى حاجة الى أن أعدد لك جرائمهم التى تعرفها جيدا "
ولكن الحبقى لم يرتدع وواصل الكلام ،تأمله آدم الصغير ورأى انسانا آخر ، شعر بحاجز غير مرئى بينهما ، لقد تغير وصار غريبا .
عاد بن عبويقول
" المعارك خلقت للرجال ، لا مكان للفئران بيننا "
كادت تنشب معركة كبيرة بالسيوف بينهما ، لولا تدخل بن أمية بصوته الجهورى " كفى يجب أن تخجلا ، نتقاتل بدلا من أن نتحد ونصير يدا قوية فى وجه العدو"
كان بن عبويلهث والحبقى يمسح قطرات دم تناثرت من جرح فى وجهه.
منذ ذلك اليوم صار الحبقى علامة استفهام ، وفكر فيه الجميع ،كل بطريقته.

●●●

انزوى الحبقى فى ركن من الكهف ،نظراته لا تعكس سوى البراءة ، الأمور تختلف اذا تكلم ،عبارات مراوغة وصوت خافت ،أين تعلم ذلك الزيف، كان أشجعنا وأكثرنا إقداما ،كيف تغير ؟
قال إنه لم يعد يحتمل صورة الدم منذ أن رأى الطفل يحتضر،وجده تائها بين الجبال ،يرتجف من البرد ، لفه بعباءة ثقيلة ، احتمل البرد عنه ، حاولنا أن نعرف شيئا عنه اسمه ،أمه ،أبيه ،عنوانه .
كان كل شئ ممحيا من ذاكرة الطفل ،كلمنا بالقشتالية ولكنه نطق بضع

كلمات عربية ،وأرانا حجابا كان يعلقه حول عنقه ،كتبت عليه آيات قرآنية ، كأنه يدفع عنه خطر الشك فى هويته .

حتى ولولم يكن منا ،كيف نقتله ،هذا يتنافى مع تعاليم الاسلام .

أعطينا الحبقى مسئولية حراسته حتى نبت فى مصيره ،فسحره الطفل ، وتحول الحبقى المتجهم إلى إنسان آخر ،كنا نستمع إلى ضحكاته ممتزجة بصوت الطفل .

قال لنا

" ابقوه أتخذه ولدا "

ما هذا الكلام الفارغ ، نحن فى معركة ، لا وقت لتلك المشاعر ،كلمته عن ابنى ، قلت له ،اكتشفت وجوده صدفة ،زرته فى كهف غرناطة ،لم يكن يعى وجودى ، لم أحاول رؤيته مرة أخرى كى لا أضعف ، لقد وهبت حياتى لغرناطة ، قلت له نحن فى حرب وغرناطة تستحق أن نضحى .

لكن كلماتى تبخرت ، رد على كالمسحور

" يا آدم الصغير لسنا متماثلين ، لقد تركت ابنك ولكنى لن أترك هذا الولد ، لن يحرمنى منه أحد "

هنا تدخل القدر ومرض الطفل بحمى غامضة ،ولفظ أنفاسه فى يومين .

مات بعد أن نقش وجوده فى قلب الحبقى ،منذ هذه اللحظة فقد إيمانه بالحرب ،أخذ يهذى باقتراحات ومخططات للصلح .

رأيته مرة يمسح دموعه بطرف قميصه ،كنت واثقا انه يتذكر الطفل فى هذه اللحظة .

●●●

لم يأت هذا الطفل فى طريقنا صدفة ،انه مرسل من الأعداء لاختراق معسكرنا ، وابتلع الحبقى الطعم .

لم أنخدع يوما بالحبقى ،يقولون ،شجاع ،مقدام ،أسد ، يلتفتون إلىّ يسألون "ما رأيك يا بن عبو"؟

أصمت ،أحتفظ برأيى لنفسى ، لم أكن أريد إحداث شرخ بين صفوفنا ، ولكن هذا لا يعنى الموافقة .

الكل ينتظر أن أتكلم ،لأنى معروف بالحذق والفراسة ، كلماتى تصيب الهدف بدقة .

ولكن اذا كانوا يصدقون ما خلعوه على الحبقى ، فما حاجتهم لرأيى ، لابد أنهم يتوجسون مثلى ،يرون الحقيقة وينكرونها ،فالحبقى متخاذل ، ضعيف ،لديه استعداد للانحراف .

لم أصدق لحظة ما ادعاه بخصوص الطفل ،قال لنا أحببته ،حرك مشاعر الأبوة لدى . هراء كان يريد أن يخفى الحقيقة ، الطفل ما هوإلا جاسوس ،ومن يدرى ربما أعطاه رسالة ووعوداً من القشتاليين ، وهذه الحمى التى قتلته ، ليست قضاء وقدرا ، إنها أعراض سم كان يخفيه هذا الحبقى ،وسقاه إياه ، بعد إنجاز

مهمته .

دفن الطفل ومعه أسراره ،ولكنى لم أنخدع أبدا .

الحرب فنون ومكر ، فى الحرب يجب أن لا تخدعنا نظرات الأطفال التى تشبه العسل ،وإيماءاتهم ،التى تخطف القلب .

وهذا الحبقى الخائن ، سوف أقتله يوما .

●●●

إنه أمر مدهش أن تجد نفسك محاطا بثقة الآخرين ،أن يتطلعوا إليك لتنقذهم .

ولدت فارسا ،ولكنى لم أتوقع أن أصير ملكا .

تخليت عن اسم فرناندو لأصير بن أمية ، منذ أن التف الشرفاء حولى فى بيثنار ،

ووضعوا على رأسى تاج الملك ،مثل أسلافى فى زمن المجد ،وأنا أشعر أننى ولدت من جديد .

أن يكون المرء قائدا وملكا وهوفى العشرين من عمره ،مسئولية كبيرة .

الحبقى أحد رجالى ،أحبه وأثق به ،وأتفهم ضعفه أمام الطفل ،من منا بلا نقاط ضعف ، كانت لى حبيبة قبل دخولى فى المعمعة ،هى نقطة ضعفى، لا أحد يعرف هذا السر سوى آدم الصغير الذى أعتبره مرآتى ، رغم أنه لا يشبهنى ، لا وجه للمقارنة بين جسده المفتول وجسدى الضئيل ، صمته وصوتى الجهورى ، شكه فى الناس وثقتى بهم .

أعرف القليل عنه ،أمه درة صانعة السجاد الشهيرة ،وخالته سهر كم تمنى أن تحل محل أمه ، أما ولده الوحيد فظهر فى حياته مؤخرا ، اسمه ماء الذهب،المعنى العربى لكلمة الزرابى الفارسية ، يبدوأن درة أرادته أن يكون صانع أبسطة ،وأن يكون اسما على مسمي، الجارية التى أنجبته له، منحها ليلة واحدة ثم أسقطها من حياته .

قال لى ضاحكا ،هذا الذى تعتبره قليلا ،هو حياتى كاملة ، لا أحداث أومغامرات ، حلم واحد تمكن منه هوتحرير غرناطة .

الوقت هووقت الوحدة لا الخلاف ، احذروا الفتن ، هذا ما أقوله لرجالى دائما ،

وأتمنى أن يرضخ الحبقى وبن عبوفى النهاية لصوت العقل ،ويكفا عن الأفعال الصبيانية .

يقف الحبقى الآن ، يحدق بعينيه الضيقتين فى الفراغ ،ويحك أنفه المعقوف والله اعلم فيما يفكر .

أما بن عبو فيراجع الخرائط ،ويضع اللمسات الأخيرة على خطتنا ، ويتطلع إلينا بثقة .

وآدم الصغير يتحسس جراحه ،ويطوح بسيفه فى الهواء ، ليقول لنا إنه جاهز ،ولن يبقى فى الفراش .

صوت الريح يعصف فى الخارج ويحذر من المجهول . أسمع دبيب خطوات فأعرف أن القشتاليين يقتربون . أسير بين رجالى وأتفقد كل شئ بنفسى

" هل أنتم مستعدون ؟"

يأتينى الرد سريعا

" مستعدون "

آدم الصغير يرفع سيفه عاليا ، فابتسم رغم قلقى

" هيا إذن "

أقود الجميع إلى الخارج ،ويرقبنا القدر .

●●●

لفحنا الهواء البارد ، لا أستطيع أن أتقدم خطوة ، توقف بن أمية وألقى بالتعليمات ،فلم أركز معه ، ولا أسمع إلا صوت ضميرى .

الطفل الذى تجادلوا حوله طويلا ، رأحاطوه بالشكوك ، فتح قلبه لى وباح بأله ،

هجم القشتاليون على قريته ، لم يجد أهل القرية سلاحاً سوى الحجارة، أمسك بحجر متلهم وقذفه فى وجه الغزاة المدججين بالخناجر والسكاكين والسيوف .

كلما كان الطفل يتذكر أكثر ،يرتعد ، يتلعثم ، تسيل دموعه ،فيسكت ، يتطلع إلى بنظرات زائغة ،كأنه يرجونى أن أقبل حكايته الناقصة . أطمئنه وأضمه فيهدأ، ويشعر أننى فهمت ما مر به .

يقولون لى

" يا حبقى احترس "

" لا تستسلم لمشاعرك نحن فى حرب "

ألا يرون أنه مجرد طفل ،مزقت الحرب أمنه وسلامه .

اذا تصرف البشر بطريقة أكثر إنسانية ،ونبذوا ما بينهم من عداوات، لكان الآن فى بيته، بين ذويه .

أسمع الاعتراضات ، يقول آدم الصغير

" لا تصالح مع وحوش ، يجب ان نثأر

ويهيننى بن عبو

" لامكان لك بيننا ،أنت إما فأر أوخائن "

بن أمية هوالوحيد الذى يفهمنى ،ولكنه لا يدافع عنى بكلمة .

هذا الطفل روح يائسة ،تعكس نتيجة أطماع الانسان . ما ذنبه انه بحاجة الى الحب والسكينة .

قلت لهم

" أعطونى فرصة كى أساعده "

فماذا فعلوا ؟هرولوا الى سكة الدماء ،وأحاطونى بنظرات الشك .

الأمور لا تؤخذ بهذه الحدة ، لم لا يفترضون ببساطة أننى كنت أعمى رد إليه بصره ،وصارت لا تعجبنى أساليب البشر ، يكرهون ، يغتابون ، يكذبون، يكيدون ، ينافقون ، يقتلون ، وحين أطالب بالسلام ، يتساءلون أى منفعة تعود على، لابد أن القشتاليين اشترونى وأغرونى بالذهب .

من الخائن ؟ أنا أم من ؟

رأى الطفل قبل موته رؤيا حزينة، صدقتها لأننى كنت أرى جذورها بيننا، سيقتلنى صديق لا عدو،قاتلى سيقتله تابع له ،سنتسلط على أنفسنا، ونحصد أرواح بعض ،وسيضحك القشتاليون وتحلولهم الفرجة .

لم أخن ،أعلنت ما رأيته صواب ، فى وقت أسر فيه غيرى الدسائس .

لوأن قاتلى رحمنى ،ربما وجد الرحمة عند قاتله ، لولم ينزع روحى لفكر قاتله ألف مرة قبل أن يسلب روحه .

الطفل كان ضحكة صافية لا نستحقها ،ولهذا صعد إلى بارئه سريعا ، أصابته حمى وحصدته .

أحلم به يلوح لى من الجنة ويقول لى ، لا تتأخر .

لم أعد أخشى الموت .

●●●

أقسمنا أن نحارب ،أن نفتح صدورنا ونستقبل سهام العدو،أقسمنا ألف قسم من أجل غرناطة .

حتى الغرناطيون الذين لم يثوروا فى قراهم ومدنهم ، كانوا يبعثون الينا بالمؤن والعتاد ، يتطلعون إلينا فى أمل ،لم يقاتلوا مثلنا ، ولكنهم أرادوا أن يقولوا ، نحن معكم .

سقطت الأقنعة ،وكل التفاهات التى قيلت عن التعايش بين الغرناطيين والقشتاليين ، انقسما، إلى حياتين وشعبين ،لا يرى أحدهما الآخر .

ربما مازال يتبادل بعض التجار من الجانبين البضائع والدويقات ، ولكن هذا لا ينفى أنهم أبصروا جليا هذا الجب الذى يفصل بينهما ، وأن أحدهما عليه أن يسحق الاخر ليتمكن من الحياة .

أنا آدم الصغير ،أتجول بفرسى فى الدروب الضيقة ، وطعنة خنجر فى ظهرى .

التقيت بغرناطى عجوز ، اقتادنى إلى بيته المتهالك .

أشعل نيراناً، وحاول اخراج الخنجر من ظهرى ،دون جدوى .

قلت له

" لا تتعجب ،هذه طعنة شاهدة على الخيانة ،إنه ليس خنجر العدوكما ترى "

أطرق الرجل وبكى

"إذن لن تعود غرناطة ،لقد احتملت كل هذه السنوات على أمل أن تعود"

قلت له

" المعارك مازالت دائرة وهناك شرفاء "

شعرت بغصة لأننى تذكرت فى هذه اللحظة الخونة .

قتل الحبقى وبن أمية ،والقاتلان منا .

صار بن عبوقائدنا ،أين هومن ابن أمية ،وخاصة بعد أن لوث يديه بدماء الحبقى ، ولهذا تراجعت بسرعة عما قلت ،فلا أمل .

نظر إلى العجوز

" ربما لا نستحق غرناطة ، ربما لم نحبها بما يكفى "

انتابنى ألم شديد فى هذه اللحظة ، مزج العجوز لى بعض الأعشاب المسكنة، التى تجرعتها مرة واحدة

" لابد أن أمضى "

امتطيت فرسى ،وتركت نفسى للطريق

(٧)

" ولكن لماذا؟ "

ضاقت عيناه في دهشة .

فكرت درة ، حقا لماذا ؟ أليس مجرد بساط ؟ اذا لم يصنعه ماء الذهب ليبيعه ، فلم تكبد العناء ؟ ألن تصير صناعة الأبسطة مهنته ؟ ،وماذا عنها ؟ كم تعلقت بأبسطة نسجتها ،ولكنها تركتها في النهاية لصاحب النصيب.

قال ابراهيم

" سأشتريه بأى ثمن وسينسج واحدا غيره "

بدا التشكك عليها ،أنجز بساطه اليتيم ،وطوال شهور تلت ، لم يلمس حفيدها النول

حولت دفة الكلام كى لا تتسلط عليها الأفكار المحبطة

" اذن ستعود إلى القاهرة "

تطلع ابراهيم إلى الفراغ في صمت . لم يعد يفهم ما يدور في غرناطة، بالأمس شاهد اشتباكاً كبيراً بين قشتاليين وغرناطيين في أحد الأزقة ، تساقط القتلى وسالت الدماء ، ابتعد بأقصى سرعة،وعلى بعد زقاقين رأى نسوة يثرثرن ،ورجال يتصافحون ،وباعة جائلون يعرضون بضاعتهم .

هكذا صارت الأمور ،الموت على بعد زقاقين من الحياة .

ما حدث لم يكن استثناء ، تكرر طوال الشهور الماضية .

كانت الحرب دائرة، وكثرت الحكايات عن الأشباح والظلال المناصرة للغرناطيين ، وأقسم عجوز التقى به داخل حانوت ، أنه شاهد فارسا لا يشبه البشر يجوب غرناطة ، رافعا سيفه المكتوب عليه لا غالب إلا الله ،

أيده كثيرون ،مؤكدين أنه الأمير موسى الذى لعن خنوع الملك أبى عبد الله، ووزرائه وعلمائه وحاشيته الفاسدة ، رافضا تسليم مفاتيح غرناطة لملكى قشتالة وأراجون ،عاد العجوز يتمتم :" الشيطانان "

ارتفع صوته قليلا وقال

" ماذا كان يفعل الأمير موسى وحده ؟ و ايزابيلا وزوجها كانا والله شيطانان "

خفض صوته كأنه يفشى سرا

" ماذا يفعل ؟ وهناك الخونة والمتقاعسون ، كان وحده، أما الآن فالأمر مختلف ،الآلاف يذكرونه ويمشون على دربه ، لقد فاض الكيل "

توالت الحكايات ،وسمع إبراهيم الكثير، من أناس تحرروا وتكلموا العربية علنا .

كان هناك ارتباك ، ووقت توقفوا فيه عن الكلام ،وعم صمت ثقيل ،كأنهم فى حيرة من تفاصيل كثيرة تفاجئهم بها القصص ، ماذا سيقولون ؟هل يكتفون بترديد ما رسخ داخلهم كعقيدة " هذا وقت القطيعة بيننا وبينهم ، هل تفهمون ؟ مستحيل أن نتفاهم ، الجسور بيننا تفتت ،هل تفهمون ؟"

وهذه هى الصعوبة ،فرضت الحياة تناقضاتها فى بعض الأحيان ، وتردد ذات مرة ،أن قصة حب ربطت بين قشتالية وغرناطى ،رغم الدماء والموت . مثل تلك القصص تكتمها الجميع ،اعتبروها هلاوس أوأحلام يقظة.

بالنسبة لابراهيم كانت تجربة أعمق مما تخيل ،وتستحق المخاطرة ، شعر أنه قفز سنوات نحوالنضج والفهم ، ذكره ما يحدث بما سمعه عن أحوال القاهرة عقب دخول العثمانيين قبل سنوات كثيرة من ميلاده . حكت له الجارية ذات الوجه الذهبى ما استطاعت ، كانت تتوقف فى منتصف الحكاية وتقول ، يا ابراهيم هذه لحظة يصعب وصفها ، احتوت كل شئ ،

القسوة ، الوحشية ،الحياة ، فأهل القاهرة رغم المصائب لم يتوقفوا عن الحياة .

نبهته إلى وقوع أحداث لم يعرف بها أحد ، دفنت لأنها مختلفة عن السياق ،واعتبرها أكثر الشهود شفافية ،استثناءات لا يجب الالتفات اليها، رغم أنها كانت مؤثرة وصادقة ،وفتحت فى نفوسهم نوافذا وأبوابا ،وقادتهم الى معان أذهلتهم وأبهجتهم ،ولكنهم خافوا وتشككوا فى أى بهجة نبتت فى غابة الألم ،فتغاضوا عنها كأنها قطرة ماء وسط نار ضارية ، ليس فى مقدورها سوى أن تتبخر وتختفى .

يسأل

"كيف تنبت بهجة وسط الألم ؟"

تسكت لم يدر كيف حتى أتى إلى غرناطة .

ربتت درة على كتفيه وقالت كأنها تخاطب نفسها

" سيكون كل شئ على ما يرام "

تطلعت إلى البشرات وقالت

" أعرف أنه هناك "

" من ؟"

" ابنى "

تمسح دمعة شقت وجنتيها ، يطأطئ إبراهيم ولا يتكلم .

ترسم ابتسامة

لماذا تصر على هذا البساط ،ألا تعجبك أبسطتى

شعر بالحرج

" لا لا أبدا والله "

قالت

" لا عليك ، إنه نادر "

أحس ابراهيم أنه يسير فى طريق مسدود ، انفرج قليلا حين ظهر ماء الذهب واتجه نحوهم قادما من الحديقة .

سأله إبراهيم مباشرة

" ما رأيك أن تبيعنى بساطك "

" لا "

قالها قوية ، قاسية ، حاسمة .

تطلعت إليه درة كأنها تراه لأول مرة .

●●●

"أنت طفل ... طفل "

هكذا دنيا الكبار ،يتكلمون ولا يلتفتون إليّ ، فإذا لمحونى ،يبتسمون وينعتونى بالطفل .

لوعرفوا ما يدور فى رأسى ، لواطلعوا على كنوزى من الصور والعبارات والشخوص .

أحيانا أطلعهم على أشياء أعرف أنها حقيقية ،فيردون دون مبالاة

●●●

" خيالات طفل "

جدتى تغرقنى بنظرات محذرة ، تظن أنها إذا أخافتنى فسأترك عالمى، وأعود للأرض. عالمى الذى يخافونه ولا يفهمون أنه سر سعادتى وشقائى .

بالأمس عاد ظلى ليحدثنى بعد طول صمت ، ولكنه حذرنى من دنيا الكبار ،

قال لى

"لا تخبرهم بما بيننا يا ماء الذهب "

ثم سقط فوق البساط وقال

" من يدرى ربما تنسج واحدا جديدا "

قلت له

" هو من أجل ليلى

قال

" من يدرى ،قد تلتقى بليلى أخرى "

" مستحيل أنا أحب ليلى "

كنت ساعتها لا أدرى إن كنت أفكر فى ليلى التى أعرفها أوتلك الأخرى .

قال لى

" أنت صغير

أزعجنى كلامه ،قلت

" لا تنسى أننا فى عمر واحد "

انكمش الظل كأنه انشغل فجأة بفكرة طارئة .

وكنت منشغلا بليلى الأخرى ،كيف ستبدو، وإلى أى حد ستشبه ليلى التى أعرفها .

نظرت إلى البساط فهئ لى أن وجه ليلى الذى نسجته بعد جهد تغير ولم يعد كالسابق ، وامتزج بملامح الأخرى التى كانت تأتى من رأسى، قلت لظلى فى غضب

"أنت شرير ،وضعت داخل رأسى فكرة شريرة ،أنت شيطان "

ولكن ظلى راح يردد كل ما أقول ، دون زيادة أونقصان .

قلت له

" لماذا تقلدنى وقد أعطيتك الحرية "

ردد كلامى .

أدرت له ظهرى ،وشعرت أننى خسرت صديقاً .

●●●

ترك إبراهيم غرناطة تحت جنح الليل ،بصحبة سهر والعبد .

حاول اقناع الباقين بمرافقتهم إلى مصر ،قالت درة

حتى لوكان ما تقوله صحيحا ، لدى معارف قشتاليين ، صنعت لهم فى الماضى أبسطة أحبوها ،وسيساعدوننى

نظرت سهر إلى ماء الذهب فى شفقة ،ردتها درة بنبرة حاسمة

" ماء الذهب سيبقى فى بيته ، سيكبر ويتزوج وينجب هنا "

كان من المستحيل معرفة ما حدث بالتفصيل ، ولكن بلغهم إخلاء قرى بأكملها من الغرناطيين .

ضحكت درة

" شائعات ،هذا ما ردده الجميع منذ سنوات دون أن يحدث شئ "

حاول إبراهيم اقناعها

" أرجوك الأمر جد "

تجاهلته ونظرت إلى سهر

" لماذا تتركين بيتك وتتركينى ،ألسنا شقيقتان ،وسقف هذا البيت لنا "

سكتت سهر ، لطالما حلمت بالسفر والابتعاد ،الآن تحس أن جذورها تقتلع . انتابتها مشاعر معقدة ، رغبة فى احتضان درة والبكاء فوق صدرها وراحة كبيرة لأنها على وشك التحرر من سطوتها إلى الأبد .

اختارت درة بين العبدين وقالت

" خذوا هلال معكم ، إنه خبير بكل مسالك غرناطة ومخارجها ،انه

ذراعى ولكنى لست بحاجة إلى ذراع الآن ،كل ما أريده هوأن أبقى وأموت فى هذا البيت "

هل كان هذا محض صدفة ؟

لم تبك سهر ،أرادت البكاء ولم تستطع ،طيور لا تعرف أسماءها كانت تزقزق فى الخارج ،بعضها أطلق صفيرا غير مفهوم ، ترى ماذا ينتظرها خارج البيت الذى حبت وأينعت وذبلت فيه .

تحسست صدرها ،حيث وضعت صفحة الكتاب الناجية من الحريق الكبير ، الحريق الذى التهم كتبا لا تعد أيام طفولتها .

تذكرت ما بها من كلمات وتشجعت

" إلى اللقاء "

احتضنتها درة فى صمت ، تمنت أن تغير رأيها وتبقى ،فلم يعد فى العمر متسعا من الوقت وأمل فى اللقاء .

خطت سهر نحوالباب فى إصرار ،هكذا تمنت منذ سنوات ،أن تجتاز هذا الباب بلا رجعة .

قالت درة بصوت آمر

" توقفوا "

استدارت نحوابراهيم

" لم تأخذ أياً من الأبسطة "

فكر ابراهيم فى بساط واحد لن يناله

قالت

" ربما لن أستطيع إعطاءك البساط الذى تريد ،ولكنى سأعطيك أبسطة جميلة " اختارت له ثلاثة أبسطة وأمرت هلال " احملها عن السيد

كاد هلال يصرخ فى وجهها "لست عبد ، ليس بعد الآن "

ولكنه رضخ للأوامر ، جزء منه أراد أن يطيع .

" لا لا أريد مالاً .. هى هدايا "

التفتت سهر حولها

"أين ماء الذهب ،كان هنا ،أريد ان أقبله "

قالت درة

" ادخلى وقبليه "

مشت خطوات نحوغرفته ثم تراجعت

" سأحتفظ له بقبلة عند اللقاء "

سكتت ثم عادت للسؤال

"وريحانة وعدنان "

نظرت إليها درة فى عتاب ، كانت عيناها تقولان ، لماذا تسألين وقد اخترت الرحيل ؟

قالت سهر

" هيا "

رد رفيقاها بايماءة .

ابتلع الليل ثلاثتهم .

●●●

قال ماء الذهب لظله

" كنت أود الذهاب

لم يرد الظل فقال

" ليلى هناك فى القاهرة ،ولكنى أشعر أنها هنا ..."

دخلت درة عليه فجأة ،فتوقف عن الكلام ،واستدار ظله نصف استدارة ،ليراقب ما يحدث .

قالت له درة

" لا تخش شيئا "

لم يكن خائفا ولكن الخوف تفجر داخله ،حين تكلمت بهذه الطريقة .

أخرجت مفتاحا نحاسيا كبيرا من صندوق كانت تحمله

" خذه "

قال ماء الذهب بصوت طفولى

" لا أريد "

" كيف ؟ أنت رجل "

تطلع إلى ظله ، أراد أن يقول له ،هل تسمع ،أنا رجل .

ولكنه فى لحظة تالية انتابته مشاعر مبهمة ،وأحس أنه على عتبات عالم جديد .

" خذه لقد كبرت "

داهمه البكاء ، فقالت درة

" الرجال لا يبكون "

حدق ماء الذهب فى ظله . وضعت المفتاح بين أصابعه الصغيرة .

" انه مفتاح البيت ،هذا بيتك ، مهما حدث ،عليك أن تعود إليه "

شعر ماء الذهب أن سنواته تضاعفت حتى نسى عمره الحقيقي، اختلس النظر إلى ظلها الذى تضاءل ،وظله الذى بدا غريبا .

عانقته ، امتزج الظلان فوق الحائط .

●●●

قسمت مملكة غرناطة إلى سبعة مناطق ، فى كل منطقة ، شخص أومجموعة مسئولين عن تنفيذ الأوامر.

كيف لدرة أن تعرف هذا ؟ حدث كل شئ فجأة ،وذات صباح أخرجوها من بيتها

لتنضم إلى طوفان من الغرناطيين . كان الزحام غير محتمل ،لا موضع لقدم فى الطرق والأزقة والساحات .

بعضهم أخذ يصرخ فى هيستيرية ،بعضهم كان يبكى ،والبعض وضع قناعا جليديا على وجهه واكتفى بابتسامة مبهمة .

امرأة ممتلئة نظرت إليها ، انكمش وجهها وحركت شفتيها بكلمة ، خطرت لها الكلمة نفسها وكتمتها ،ولكن المرأة استمرت فى تحريك شفتيها والنظر إليها فى توسل .

ماء الذهب كان متعلقا بجلبابها ، ريحانة كانت مشتتة وكثيرا ما توقفت دون سبب ليجرها القشتاليون جرا ، ثم ابتعدت المسافة بينها وبين درة ، ابتعدت كثيرا حتى صار وجود كل منهما فى ذاكرة الأخرى كالضباب .

سألت درة أحدهم

" هل سنعود "

أجاب بالقشتالية دون أن يعكس وجهه شيئا

" الحرب هى السبب ، صار الغذاء قليلا فى مملكة غرناطة ، ستذهبون إلى أماكن أفضل "

" هل سنعود ؟"

يتحول إلى غيرها ويردد الكلام نفسه .

ماء الذهب كان منشغلا بمتابعة ظلال الناس ، عرف من حديث الظلال ما عجزت الألسنة عن وصفه . لم يكن خائفا أوقلقا ، كان مبتهجا بسيل الحكايات التى تفجرت من حوله ، مثل شرارات من نور ونار ،وضبط نفسه يتأمل بزة ملونة فى شغف ، دون أن يسأل هل من يرتديها عدوأم صديق .

كان ظله يخترق الظلال ليلتصق به ، خوفا من أن يفقده فى الزحام ، ولكن الظلال الخانعة لم تفهم سبب خوفه ،وسألته .

" كيف تفقده وأنت ظله وهل نحن مخيرون ،ألسنا مجرد ظلال "؟

لم تكن درة تعرف أن ما يحدث لها ، يتكرر مع آخرين الآن فى روندة، مالقة ، غواديس ، باثا ، بيرا، المرية .

كيف لها أن تعرف ؟

هواء غرناطة صار ثقيلا ، معبقا بروائح التعب ، القلق ، النرجس ، الياسمين ، الشيخوخة ، الطفولة ، البول ، الزنابق ، العرق ،الأطعمة القليلة التى كانوا يوزعونها فى أول النهار وآخره ،ورائحة نفاذة اكتشفت أنها تنبعث منها

كأنها رائحة السنين والذكريات ولم تعرف كيف تداريها .

استقر بهم المقام فى إحدى الكنائس ، كان الزحام شديدا ، استطاعت درة أن تحتفظ بصعوبة بماء الذهب إلى جوارها ، لم تر ريحانه ، ربما كانت قريبة ومختفية وسط الزحام ،أواصطحبوها إلى مكان آخر .

لم يخطر عبدها الثانى على بالها ، أوخطر لها مرة وأسقطته ،بعد أن فشلت فى تذكر اسمه ، لم تناده به ، لم تقل أبدا يا عدنان ، كانت تنادى هلال كثيرا ،أما هوفلا ،ومع ذلك تكلفه بالعمل الثقيل .

قسوة ؟ ما أهمية اكتشاف هذا الآن ؟

لم تكن كما ظنها الناس وكما ظنت نفسها رحيمة بمن هوأضعف ، لم يشغلها هذا العبد ، لم تفكر فيه كانسان له حق التسمى ،أما مع هلال فالوضع مختلف ،كان يخيفها ،وتحاول تفادى نظراته . عرفته لأنها كانت ترهب رد فعله ان جعلته نكرة .

هل ظلمت عدنان ؟ لم ؟ كل ميسر لما خلق له ،وقد خلق ليكون عبدا ونكرة.

وهى من تكون ؟ درة صانعة السجاد ، أم عجوز عاشت غريبة فى وطنها،

وأجبرت فى النهاية على تركه ؟

اذا كان عبدا ، فهل كانت حرة ؟ أم أن العبودية درجات ؟

ومن يقف فوق رأس الآخر ، يمارس سطوته عليه ويقهره ،لأنه بذلك سيشعر أنه أكثر سيادة ، إنه ليس فى القاع مثله ، بل أعلى درجة أودرجتين .

أسقطت عدنان تماما ، سحقت كل ما يذكرها به ، خشية أن تكتشف أنها انزلقت إلى أسفل ،وصارا متساويين ،نكرة فى مقابل نكرة ، بعد أن فقدت البيت .

●●●

كانت السفينة تبتعد ، وغرناطة تبدو كنقطة تتضاءل كلما مرالوقت حتى اختفت .

لم تنل سهر الراحة التى توقعتها ، لم تغلق صفحة الماضى كما تمنت، انفتح الماضى عن آخره ليقول

" ما حاجة مثلك إلى الحاضر أوالمستقبل "

بدأت تعيد اكتشاف أشياء مرت بها ،فزقزقة الطيور وتفتح الزهور ومواصلة الحياة تحت سماء غرناطة بدت معجزات كلما ابتعدت .

أرادت أن تسأل ابراهيم عن مصر ،ولكن مشاهد من حياتها السابقة كانت تحتل تفكيرها .

تذكرت ذلك اليوم البعيد من أيام طفولتها ، لم تكن تجاوزت السابعة، يوم شاهدت الحريق الكبير ، هرولت خارج البيت حزينة ،كانت تقاوم ألم الغيرة ، فدرة تحظى بكل شئ ، الحب ، الجاذبية، الموهبة ،درة ترفض حلوى أبيها ،ومع ذلك يحايلها ،ويهمس لها

" أرجوك قطعة واحدة ، ابتعتها من أجلك ، لا تنسى أنك طفلة "

همس لدرة ونسى سهر ، لماذا ؟ لأن سهر طفلة ، وتتصرف وفق ذلك ، لا تحتاج إلى الحلوى ، يكفيها نعمة الطفولة ، أما درة فيؤرقه تعاملها مع الحياة بجدية لا تناسب عمرها، لماذا يبتاع لسهر الحلوى خصيصا وطفولتها قوالب لانهائية من العسل والسكر، هكذا ظن .

أخذ بالظاهر ، لم ير الدموع والألم الذى اختزنته .

شاهدت الكتب تحترق فى الميدان الكبير ، كانت تحترق مثلها ، بل نيران قلبها غدت أكثر لهيبا .

ألمها الماضى فهل اختلف اليوم ؟

شقت السفينة البحر بعيدا عن غرناطة .

أيقظها صوت ،ليخبرها أن قلب درة يحترق الآن كما تمنت، ثم تلاشى واختبأ فى مكان ما ،كأنه لم يقل شيئا ،أوينتظر شيئا . تذكرت أنذاك مواقف جمعتها بشقيقتها ،لمسة يدا ،سر تقاسماه ،ضحكة تبادلاها، وشوشات كثيرة

وغامضة وحكايات متعددة ،أرقتها تلك الذكريات الصغيرة التى اكتشفتها فى نفسها ،لم تعد تفهم نفسها أوتشعر بالسكينة ، فارقتها الراحة بلا رجعة .

اقترب منها ابراهيم وقال

" غن "

هكذا كانت درة تطلب منها .

قال ابراهيم

" السفر طويل ،أعيدى الأغنية التى رددتها حين صعدنا تل البندول "

كم صعدت هى ودرة التل فى طفولتهما ، التل الذى بكى فوقه أبى عبد

الله ملك غـرناطة الأخـيـر ، وأمــه إلى جـواره تصـرخ قـائلة ، ابك ،ابك كالنساء، ملك لم تدافع عنه كالرجال .

عرفا بلحظة الخزى تلك ، ولم يتوقفا عن صعوده ،واللعب فوقه ، كأنما اتفقا على محـاصـرة الهزيمة والذكريات المرة ، وايداعـها فى ركن مظلم حتى تختفى إلى الأبد ،ولا تعكر صفوألعابهما .

صعدته سـهر مرة أخيرة ، قبل الرحيل عن غرناطة نهائيا غير آبهة بوهن عظامها ، وثقل أنفاسها وشيخوختها

سألت

" هل غنيت هناك "

" لك صوت كالبلبل "

التفتت إلى هلال

" وأنت يا هلال ، سمعتنى ؟ "

أومأ هلال ، كان يشعر أنه صار نصف حر ، وتردد هل يكتفى بذلك أم يكمل

للنهاية .

قالت بصوت مشروخ

" أمر عجيب ، لا أذكر أننى غنيت "

●●●

لوح ثلاثة ظلال للسفينة حتى اختفت .

قال بدرو

" مازلت أراها "

تطلع ظلا ابن عربى وحى بن يقظان الى حيث أشار ،ولم يبصرا سوى السراب.

قال ابن عربى

قد لا يرى البصر ما يراه القلب "

كانت الأغنية التى غنتها سهر فوق تل البندول ترن داخله . لم يكن الوحيد الذى تأثر بها من بين الظلال والناس .

التفت حى بن يقظان إلى بدروودندن بالأغنية .

تساءل بدرو

" هل رأتنى

ابتسم ابن عربى

" من القلب للقلب "

هز حى بن يقظان رأسه

ليتها غنتها مرة أخرى ، ليتها غنتها إلى الأبد "

قال ابن عربى

" أغنية حزينة "

" تنفذ إلى القلب "

عم الصمت ثم سأل حى بن يقظان باهتمام

هل يمكن أن أحب ،أعنى أن أحب امرأة "

ها أنت تتمرد وتريد أن تغير قدرك "

" هل هذا ممكن

" جرب "

استدارت الظلال الثلاثة

" إلى أين ؟"

" إلى حيث يريد القلب "

" فلنتركه يقودنا إذن

تسامر الثلاثة إلى ماشاء الله ، وكانت الكلمات تولد بينهم وتترك علامات ، ثم تفسح لكلمات جديدة تدفقت بلا نهاية .

●●●

نعرف مكان سهر وهلال ، وبالطبع مضيفهما إبراهيم ، رغم أن معرفة المكان ، لا علاقة له بالتنبؤ بالمصير .

من الصعب معرفة مكان درة وسط هذا الزحام .اتجهوا شمالا ،كان البرد شديدا ،والطعام شحيحا ، هناك من سقط من الجوع ، والتعب ، هناك من أصابته الحمى، لم تعد ترى ريحانة ، لقد افترقا إلى الأبد ، تمسك يد ماء الذهب بصعوبة . البعض يقول : إنهم ذاهبون إلى قرطبة ،والبعض يقول بل اشبيلية .

يتشبث بها ماء الذهب ، فتشعر أنهما نقطتان ضائعتان فى عالم قاس .

تتبع درة بات مستحيلا فى هذا الحشد ، فهناك آلاف يشبهنها ، يتعثرن، يبكين ، ويتذكرن .

فقط ماء الذهب وأمثاله كانوا يستطيعون تجاوز كل هذا بقوة الأحلام والخيال ، كان ظله يهمس له بأشياء لا تصدق ، يكفى خيال طفل فى الأوقات الصعبة .

عدنان خرج من قبوه بعد أن رحل الجميع ، وجد نفسه وحيدا ، وكطير لم ينبت له ريش ،ولم يتعلم الطيران ، بقى حائرا ،لقد ولد وقضى حياته فى العبودية ،

ولا يعرف كيف يكون سيد نفسه ،ولذلك فعبوره المحيط إلى الجانب الآخر من العالم ،حيث الأرض البكر المكتشفة حديثا بواسطة العربى بن ماجد وكولمبس ، هذه الأرض التى تحاك حولها الأساطير، بأنها أرض الذهب والفضة ،أرض لا ينضب ماؤها العذب ،ولا حصر لثمارها الشهية .

اذا كان قد وجد نفسه فى هذه الأرض ، فالفضل لا يرجع له ولكن للصدفة التى وضعت فى طريقه ثلاثة من شباب الغرناطيين ،خططوا طويلا لهذه الرحلة ،وقرروا الهروب إلى هناك وقت تهجيرهم إلى المجهول . أشفقوا عليه حين وجدوه يتعثر فى أحد الأزقة ويبكى من الضياع ، فاصطحبوه معهم .

وبعد أيام قضاها على متن السفينة كخادم وكبحار ، اكتشف تدريجيا معنى أن لا يملكه أحد بصك .

ولكن الأرض الجديدة لا تعنى الحرية ، فلم يكن الأمر بهذه البساطة ، على الأقل وقت وصوله إليها ، سيكتشف هناك أكثر من وجه للعبودية .

لا يمكن التنبؤ بمسلكه ، فهذا لا يعتمد على رغبته فقط ،لأن التنافس الفطرى بين البشر ليستعبد بعضهم بعضا انتقل مع المهاجرين إلى الأرض الجديدة .

سيكتشف أن الحرية ليست قرارا فرديا كما ظن هلال رفيقه السابق .

ربما تساعده الصدفة مرة ثانية ، ويلتقى بأحرار أثقلتهم التجارب والآلام ، يناضلون من أجل زرع الأمل فى قلب أمثاله ،ومن يدرى فقد يولد فى النهاية مجتمع حر .

إذا عدنا إلى بيت درة ، سنجد أن القشتاليين لم يستطيعوا الاستيلاء عليه بعد تهجيرها ،لأنه صار مرتعا للأشباح والظلال ،ويقال : إن آدم الصغير سكنه بعد موته ، وداوم على الخروج كل مساء ،لأكثر من مائة عام ،وربما حتى الآن،

والخنجر فى ظهره ،والدم يقطر منه ، يجوب طرقات غرناطة فوق فرسه، غير آبه بخوف الناس منه وربما سعيد به ،ومع الوقت تجاهلوه ، بل سخروا منه ،ونعتوه بالشبح ،وذكروه بأنه ظل لرجل مات ، لكنه كان بدوره

يسخر منهم لأنه اكتشف أن الموت ليس النهاية كما ظنوا ،بل هومجرد حلقة فى سلسلة لا نهائية من الأسرار ، وجسر لشكل آخر من الوجود .

ومع ذلك تفادى الجميع الاقتراب من البيت ، وتفننوا فى وصف الخطوات

والأصوات العالية القادمة من الداخل ، والأضواء المنبعثة منه ليلا ، والظلال المتجولة فى الحديقة ، والتنهيدات الغامضة ، والريح التى تهب فى وجه كل من حاول فتح الأبواب والنوافذ .

أما البساط فظل مطويا فى مكان ما خارج البيت ، حتى التقطته يد غريبة.

(٨)

بعد خمسمائة عام أوأكثر قليلا
وصل الضيوف الى مكان الحفل
قادهم صوت
" من هنا "
تبعوه
قال
لقد أعددت له خلفية تناسب ألوانه "
شهقوا وتمتموا
"رائع .....رائع "
عدا واحد ،همس لجاره وهويدخن غليونه
" المكان يشبه مقبرة "
ضحك رفيقه .
عاد الصوت يقول
" إنه بساط أندلسى من غرناطة "
ابتعد الصوت فقال الرجل ذى الغليون
" هل الوقت مناسب لهذا الاحتفال ؟"
عم الصمت وأطرقت الرؤوس.
علا صوت رقيق لامرأة
" نموت اذن وندفن أحياء "
قال
مازلت لا أرى داعيا للاحتفال فى هذه الظروف "
ضحكت

"لماذا أتيت إذن ؟"

استدار وحدق بعينيه المستديرتين فى البساط ولم يتكلم .

ابتعدوا فاقترب من إطاره الذهبى ، نظر فى عينى البنت المنسوجة فى حيز كبير منه وهمس

" مرحبا "

غمزت البنت له وقالت

"أنا ليلى

اقترب أكثر وهمس

" مرحبا ...مرحبا بك يا ليلى فى القرن الحادى والعشرين "

ضحك صوت كان يقترب

" أشرَف بيه يخبر البساط بسر

أبعد أشرف غليونه ، فتطاير الدخان فى الهواء ،التفت ليصافح القادم وابتسم ابتسامة غامضة .

انتهى الحفل ، خلت القاعة ، وأطفئت الأنوار .

تململت ليلى داخل الإطار ، نظرت إلى النجوم الذهبية المنسوجة فوقها، كان ضوؤها الخافت كافيا لينير طريقها طوال القرون الماضية .

لقد مرت برحلة شاقة ، ظل البساط مطويا داخل صندوق خشبى لأكثر من مائة عام ، ثم وجده مصادفة مجموعة من الغجر . أحبتهم ، تمتعت برقصهم وموسيقاهم وثرثرتهم ولكن هذا لم يدم ،فقد حل عليهم قرصان ، رقص وغنى ،أكل وشرب ،ثم هددهم واستولى على البساط وباعه للسلطان العثمانى ، الذى أهداه لجاريته الأثيرة .

ولكن الجارية أخذت تحلم كل ليلة بالعود المنسوج فى منتصفه ، أرقتها ألحانه الحزينة ، كان البساط يأخذ لبها بالنهار ويفجر حزنها بالليل،

ولم تعد ترغب فى شئ سوى النظر إليه ،انصرف السلطان عنها إلى أخرى واتهمها .بالجنون لأنه ضبطها مرة تتودد للبساط وتتمنى أن تتحول الى نغمة من نغمات عوده وكاد يأمر بحرقه .

خافت ،واستجمعت إرادتها لتتخلى عنه ، فأهدته إلى ولى العهد المحبوس داخل مقصورة .

وحين خرج ولى العهد من مقصورته بعد موت السلطان وتولى أمر السلطنة أهداه إلى شيخ الأزهر فى مصر حين سمع عن ورعه وعلمه .

لاحظ الشيخ الجليل الحروف المنسوجة فى أنحائه ،وانكب عليها ليدرسها ،

واستطاع أن يفك الكثير من الشفرات والحكايات المكتوبة بالعربية ،

وكانت هناك حروف عربية أخرى تشير إلى كلمات قشتالية ،أرسل إلى تلاميذه فى مختلف البلدان ليستفسر ،ووصلته رسالة من فاس كتبها أحد طلابه النابهين

وأوضح فيها

" لابد أنها لغة ابتكرها المورسكيون ، لينقلوا أفكارهم ويحفظوا هويتهم "

ابتهج الشيخ وواصل البحث وتدوين الملاحظات وإرسال الرسائل المستفسرة ، ولكن وافته المنية قبل أن يفك شفرة هذه اللغة ، بمعاونة تلاميذه فى أنحاء العالم .

اجتمع أبناؤه واتفقوا على بيع البساط ، عارضت ابنته الوحيدة القرار بشدة ،ولكنها كانت مجرد امرأة ، لا رأى لها بين الرجال .

خبأت أوراق أبيها ،ومن بين أحفاد أحفادها ولدت فتاة تشبهها ، اهتمت بأوراق الجد الأكبر ومزجتها بالخيال لتكتب حكاية عن غرناطة ،لم تذكر شيئا عن مصادرها ،لأنها خجلت أن تقول : إن رجال عائلتها قايضوا ذات يوم الجمال والأصالة بالمال .

ومنذ ذلك اليوم والبساط يتنقل بين الأثرياء كأثر نادر يساوى الكثير فى دنيا المزادات .

تناولت ليلى العود المنسوج إلى جوارها ،وبدأت تعزف ،وكانت الزنابق المنسوجة فى الناحية الأخرى ترفرف حولها .

توقفت عن العزف وتنهدت ،صاحب البساط الأخير مصرى ،ولكنها لا تعرف مكان بيته بالتحديد ،هل هوفى مصر أم فى بلد آخر . فهمت من حوارات الضيوف ،أن اللحظة الحالية صعبة ومربكة .

كانت خائفة وتحاول أن تتنبأ بمصير البساط ، هل هوفى خطر ؟

اخترق باب القاعة المغلق عدد من الظلال التى قفزت هنا وهناك ، لوحت لليلى ونادتها .

أحد الظلال تقدم نحوها . ما ان رأته حتى ابتهجت وقفزت من البساط لملاقاته

" وجدتنى هنا أيضا !"

" سأجدك فى أى زمان وأى مكان "

انحنى لها ظل ماء الذهب ، كان العالم من حولهما يتغير ويشيخ ،وبقيا كما هما ، تنطفئ السنوات ، وقصتهما باقية .

السيرة الذاتية للمؤلفة

إصدارات أدبية

- يحدث احيانا (مجموعة قصصية) دار الأمين ١٩٩٨
- العين السحرية (مجموعة قصصية) مركز الكتاب للنشر ٢٠٠٠
- لا ظل ولا صدى (رواية) مكتبة مدبولى ٢٠٠٢
- نقط فوق الحروف (حوارات سياسية) مركز الكتاب للنشر ٢٠٠٣
- يا قلبى لا تحزن (رواية) دار الهلال ٢٠٠٥
- رغبات خفية (رواية) المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨
- سيدة مصر القديمة (دراسة تاريخية) الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٠
- حكايات المدينة السرية (رواية) دار الهلال ٢٠١٢
- معركتين من أجل الحرية (دراسة تاريخية) الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٣
- سلسلة أفكار غيرت العالم موجهة للنشء (دار المعارف طبعة أولى وثانية) ٢٠٠٨-٢٠١٢

صدر منها

- محمد يونس أبوالفقراء
- مهاتير محمد طبيب ماليزيا
- نيلسون مانديلا محارب ضد العنصرية
- بناظير بوتو حاملة راية الحرية
- محمد طلعت حرب مؤسس الاقتصاد الوطنى
- محمد عبده رائد الاصلاح الدينى

- أحمد زويل عاشق الزمن
- جان جاك روسو الملهم

اصدارات علمية

- الصحة النفسية للطفل والمرأة دار المعارف ٢٠٠٥
- المراهقة ومشاكلها دار المعارف ٢٠٠٧
- التوحد المشكلة والحل المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٩
- علاج العنف بالجمال كتاب اليوم (السلسلة الطبية) دار أخبار اليوم

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شيء ملائكي رائع

تذوق متعة القراءة مع
أحلى القصص، وأجمل الروايات

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقي الفجالة ،
4 ش الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة - ت : 22586197 - 24677371 - 24677138
فاكس - 202/24677188 ج.م.ع ، 4 ش بدوي محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850